الباب الثالث

الإعجاز البيانى فى سورة النساء

* الإعجاز اللفظى
* الإعجاز الدلالى
* الإعجاز البيانى

الفصل الأول

الإعجاز اللفظى

اللفظ القرآنى ودوره فى البيان: (دراسة على المعجم اللفظى لسورة النساء):

تقوم الدراسة فى هذا الفصل على بيان دلالة اللفظ القرآنى فى سورة النساء باعتبار أن الكلمة نواة الجملة ولبنة من لبناتها، وبقدر وضوح دلالة الكلمة وإيفائها بالمعنى المطلوب ووضعها فى المكان المناسب لها يتم البيان ويروق النظام.

قال الرافعى: «أى معنى أعجب من أن تتجاذبك معانى الوضع فى ألفاظ القرآن، فترى اللفظ قاراً فى موضعه لأنه الأليق فى النظم، ثم لأنه - مع ذلك - الأوسع فى المعنى، ومع ذلك الأوسع فى الدلالة، ومع ذلك الأحكم فى الإبانة، ومع ذلك الأبدع فى وحدة البلاغة ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية عما يتقدمه أو يترادف عليه».

ولقد نزلت كلمات القرآن منازلها؛ بحيث لا ترى كلمة زائدة أو حرفاً مضطرباً، وحتى لو استبدلت كلمة منها بمرادف لها لمجّت الأذن سماعها، وثقل على اللسان النطق بها وتاه من الجملة بيانها، حتى ارتبطت الجملة بمفرداتها ارتباط أعضاء الإنسان بجسده.

وما وقع فى القرآن من ألفاظ غير عربية: فارسية أو رومية أو نبطية أو حبشية كان لها من الإعجاز ما لايقل عن الكلمات العربية، ولا يسد لفظ عربى مسد لفظ منها (وهى كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها، وأخرجتها فى فصيحها، فصارت بذلك عربية، وإنما وردت فى القرآن لأنه لا يسد مسدها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول، فيكون قد خاطب العرب بما لم يوقفهم عليه، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه...).

جدول بيان الكلمات التى تناولتها بالدراسة فى سورة النساء

رقمها	الآية التى ورد بها	مادته	ظ كما ورد ى السورة
١١٩	﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾	ب ت ك	تكن
١	﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾	ب ث ث	
٧٢	﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾	ب ط ء	لئن
٧١	﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾	ث و ب	ت
٢	﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾	ح و ب	ا
٢٣	﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي﴾	ر ب ب	بكم
٤٦	﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾	ر ع ى	نا
١٠٠	﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾	ر غ م	غما
٨٨	﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم﴾	ر ك س	سهم
٢٤	﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾	س ف ح	فحين
٦٥	﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾	ش ج ر	ر
١٩	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾	ع ض ل	لوهن
٢٥	﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾	ع ن ت	ت

م	اللفظ كما ورد فى السورة	مادته	الآية التى ورد بها	رقمها
١٤	تعولوا	ع و ل	﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾	٣
١٥	أفضى	ف ض و	﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾	٢١
١٦	تقسطوا	ق س ط	﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾	٣
١٧	مقيتا	ق و ت	﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾	٨٥
١٨	كلالة	ك ل ل	﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾	١٢
١٩	يستنبطونه	ن ب ط	﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾	٨٣
٢٠	نحلة	ن ح ل	﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾	٤
٢١	نشوزهن	ن ش ز	﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾	٣٤
٢٢	يستنكف	ن ك ف	﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾	١٧٢

(بث)

فى قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [سورة النساء – الآية ١].

البث: النشر والتفريق. وأبثه الحديث: أطلعه عليه. والبث: الحزن والغم الذى تفضى به إلى صديقك.

قال الزمخشرى: «ومن المجاز: بثثته ما فى نفسى أبثُّه، وأبثثته إياه، وباثثته سرى وباطن أمرى إذا أطلعته عليه».

ولم يَرد اللفظ فى سورة النساء إلا فى هذا الموضع، وفى القرآن كله ورد على النحو الآتى:

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
١	﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾	١٦٤	البقرة	إشارة إلى إيجاده تعالى ما لم يكن موجودًا وإظهاره إياه.
٢	﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾	١	النساء	نشر وفرق منهما
٣	﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾	٨٦	يوسف	الذى يبثه عن كتمان فهو مصدر فى تقدير المفعول أو بمعنى غمى الذى بث فكرى. نحو: توزعنى الفكر. فيكون فى معنى الفاعل.
٤	﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾	١٠	لقمان	نشر وفرق وأظهر
٥	﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾	٢٩	الشورى	فرق ونشر
٦	﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾	٤	الجاثية	ينشر ويفرق
٧	﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾	٦	الواقعة	غبارًا منتشرًا متفرقًا
٨	﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾	١٦	الغاشية	عبارة عن كثرتها
٩	﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾	٤	القارعة	المهيَّج بعد سكونه

يتبين لنا من الجدول السابق أن كل ما جاء من مادة (بث) فى القرآن فإنه بمعنى نشر وفرق وفى موقف تحتمل المعنى المجازى لها.

واللفظ فى سـورة النسـاء يعنى تفريق المنثور فى الحيز الواسـع، ويبين أن التكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة، وكلما امتد البث تنشأ الكثرة، إذ كلما تقدم العالم إلى المستقبل يكثر، وكلما تراجع إلى الماضى يقل ويتناقص إلى أن يصل إلى آدم وحواء.

ومن ثم فإن أى مرادف لهذه الكلمة لا يؤدى ما أدته؛ فلو وضعنا بدلاً منها (فرق منهما رجالاً كثيراً ونسـاء) لما أفاد اللفظ الجديد ما أفادته كلمة (بث) إذ التفريق يتحقق بالشـىء الكثير ابتداء، ولا يفهم منه بدء العالم بالقلة وانتهاؤه بالكثرة.

(حوبا)

فـى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سـورة النسـاء - الآية ٢].

جاء فى اللسان: الحَوْبُ والحَوْبَةُ: الأبوان، والأخت، والبنت. والحَوْبَة والحَيْبَة: الهمُّ والحزن.. والحَوْبَة والحَوْبَة: الرجل الضعيف، وكذلك المرأة.

والحَوْبُ والحُوبُ والحابُ: الإثم.

وفى مسائل نافع ابن الأزرق عن ابن عباس عندما سئل عن قوله تعالى (حوبا) قال: إثما. قيل له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ثم قال لسائله أما سمعت قول الأعشى:

فإنى وما كلفتمونىَ من أمركم ليُعـلم مـن أمسى أعقّ وأحوبا

فهو اسـم دخيل على اللغة العربية، اسـتعملته العرب بمعناه الذى كان به فى موطنه (وتسـميته بذلك لكونه مزجوراً عنه من قولهم حاب حوبا وحوبا. والأصل فى حوب لزجر الإبل، وفلان يتحوب من كذا أى يتأثم).

ومن المعانى السـابقة يتبين لنا أنه الاثم الذى يرتكبه الإنسـان فى حق المستضعفين من الرجال أو النساء، كأن يقترفه فى حق أبويه أو ذوى رحمه. وهذا من أكبر الكبائر.

وقد وصف فى الآية بأنه كبير لزيادة التنفير.

والأمـر موجّه إلى الأوصياء فى أموال اليتامى. وأى مـرادف للّفظ (كالاثم) أو (الذنب) لا يـؤدى ما أداه اللفـظ؛ فالاثم: هو العمل المحرّم. والذنب: الجرم والمعصية. وقد يقترف الإنسـان إثمـاً ويرتكب ذنباً مـع من لا تربطه بهم علاقة القرابة، فـلا يكون كما وقع فى حق الأبوين.

ولفظ (حوبا) لم يرد فى القرآن كله إلا فى سـورة النسـاء، ولم يتردد فى السورة إلا فى هذا الموضع.

(تُقسطوا)

فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٣].

قال ابن منظور: أَقْسَط يُقْسِط، فهو مُقسط؛ إذا عدل. وقَسَط يَقِسط فهو قاسط إذا جار. فكأن الهمزة فى (أقسط) للسلب.

والله يقبض ويبسُط، ويُقسط ولا يَقْسط، وأمر بالقِسط ونهى عن القَسْط. ولفظ (تقسطوا) فى الآية الكريمة من أقسط يُقسط إذا عدل.

وأما (قَسَط) يَقسِط فهو قاسط إذا جار وظلم. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الجن - الآية ١٥].

والهمزة فى (أقسط) حولت المعنى من الجَوْر والظلم إلى العدل كما تقول: فلان أعجم الكتاب؛ أى أزال عجمته.

وإذا وقع العدل ابتداء كان قِسطا (بكسرالقاف)

قال تعالى: «قل أمر ربى بالقسط». وإذا كان بعد جَوْر ثم أُزيل كان إقساطا. ومن ثم فإن اللفظ (تُقسطوا) فى الآية يشير إلى أن اليتامى وقع عليهم ظلم شديد فى الجاهلية، وتعمل السورة جاهدة على إزالته. وعليه فإن أى مرادف للفظ لا يؤدى معناه، ولا يؤرخ لحال اليتامى قبل الاسلام.

واللفظ منقول إلى العربية من الرومية وهو عندهم بمعنى العدل. وقد جاءت هذه المادة فى القرآن فى مواضع متعددة، وفى السورة وردت على النحو التالى:

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	معنى اللفظ فيها
١	﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾	٣	ألا تعدلوا وتنصفوا
٢	﴿ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾	١٢٧	بالعدل فى الميراث والأموال
٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾	١٣٥	بالعدل

(تعولوا)

فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣].

العَـوْل: الميل فـى الحكم إلى الجور، والعَوْل: النقصان، وعـال الميزان عولاً فهو عائل بمعنى مال.

وجاء فى مسائل نافع بن الأزرق عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣] قال: أجدى ألا تميلوا. قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال ابن عباس: أما سمعت قول الشاعر:

إنا تبعنـا رسـول الله واطّرحـوا قـول النبى وعالـوا فى الموازين

ومـن ثـم فإن التخويف من الميـل إلى الجور فى الآية وليس من الجور نفسـه، ويصبح المعنى: ذلك أقرب ألا تميلوا إلى الجور فتُنقصوا بعض نسائكم حقوقهن. وهذا المعنى يفيد التشـديد والتخويف من الجور والمبالغة فيه، وقد أفاد لفظ (تعولوا) كل هذه الجوانب من المعنى.

وقد نُقل عن الشـافعى – رضى الله عنه – أنه قال: ذلك أدنى ألا تعولوا معناه؛ ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم. وقد خطؤوه فى ذلك لغوياً؛ لأنه لو قيل: ذلك أدنى ألا تعيلوا لكان ذلك مسـتقيماً.. قـال الراغب الأصفهانى: عال الرجل إذا افتقـر. يعيل عيلة فهو عائل؛ وأما أعال إذا كثر عياله فمن بُنات الواو.

وقد اعتُذر للإمام الشـافعى بأنه ربما أشـار إلى الشـىء بذكر لوازمه؛ لأن كثرة العيال تستلزم العيل والجور فيجعلها كناية عنه. ومن المشهور أن طاووساً كان يقرأ – شاذاً – ذلك أدنى ألا تعيلوا.

فإذا أخذنا بالرأى القائل أن (تعولوا) بمعنى تميلوا إلى الجور فإن أى مرادف لهذا اللفظ لا يسـد مسـده، فإذا قلنا: ذلك أدنى ألا تظلموا، فإن ذلك يكون تخويفاً من الظلم نفسـه لا من الميل إليه – كما أفاد – (تعولوا).

ولم يتردد اللفظ فى القرآن كله بصيغة المضارع إلا فى هذا الموضع من سورة النساء.

وجـاء على صيغة اسـم الفاعل فى "الضحى" فى قوله تعـالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [سورة الضحى – الآية ٨].

وأما فى التوبة فقد جاء على صيغة المصدر فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ

﴿يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة التوبة - الآية ٢٨] ويفهم من اللفظ في سورة النساء أنه تخويف من الميل إلى الجور مع اليتيمات؛ وذلك بالزواج من غيرهن إذا خيف الجور معهن أو الميل إليه. ومع الزوجات إلى أربع بالزواج من واحدة فقط، إذا خيف الميل إلى الجور معهن. وهذا يبين مدى اهتمام السورة بشأن هؤلاء جميعاً، وأن إيقاع الظلم بهن ذنب عظيم وجرم كبير.

ولم يرد اللفظ في سورة النساء إلا في هذا الموضع. وجاء في الإتقان أن لفظ تعولوا بمعنى تميلوا بلغة جرهم.

(نِحلة)

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴿٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٤].

نِحْلُ المرأة: مهرها، والاسم: النِحلة، تقول: أعطيتها مهرها نِحلة إذا لم تطلب منها عوضاً. وجاء في أساس البلاغة وهذا نُحْلٌ مني ونحلانٌ ونِحلة وهو العطاء بغير عوض.

وقال الراغب: النُحلة والنِحلة (بفتح النون وكسرها) عطية على سبيل التبرع، وهو أخص من الهبة، إذ كل هبة نحلة وليس كل نحلة هبة، واشتقاقه - فيما أرى - أنه من النَّحْل، نظراً إلى فعله فكأن (نحلته) أعطيته عطية النحل، وذلك ما نبّه عليه قوله تعالى: «وأوحى ربك إلى النحل».

وسمي الصداق بها من حيث إنه لا يجب في مقابلته أكثر من تمتع دون عوض مالي. والحقيقة أن الرجل إذا كان يجد في زوجته فإنها تجد منه كذلك؛ إذ المنفعة بينهما مشتركة، وهو يطلب ولداً وهي تطلبه، ولكن الله كرم المرأة، فجعل صداقها من الرجل بدون مقابل منها، ولها حرية التصرف في هذا الصداق.

وقد قيل: إن معنى نحلة شرعة وديانة. فإذا كانت (نحلة) بمعنى عطية من غير عوض، فالخطاب - حينئذ - يكون موجهاً للأزواج، بمعنى: أعطوهن صدقاتهن ناحلين إياهن نحلة، أي دون مقابل.

وإذا كان اللفظ بمعنى شرعة وديانة، فإن الأمر - حينئذ - يكون موجهاً للأوصياء الذين كانوا يأخذون مهور من يلون أمورهن من اليتيمات في الجاهلية، ومن ثم فإن أي لفظ من مرادفات لفظ (نحلة) لا يقوم مقامه ولا يصلح مكانه كما كان لهذا اللفظ.

ولم يرد اللفظ في السورة إلا في هذا الموضع؛ وما ورد في القرآن كله إلا في هذه السورة،

وهو عربى وقع بغير لغة الحجاز إذ ينتمى إلى قبيلة (قيس عيلان) وهو بمعنى فريضة.

(كلالة)

فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢].

الكَلُّ: الذى لا ولد له ولا والد، يقال منه: كَلَّ الرجل يَكِلّ (بالكسر) كلالة.

والكلالة بنو العم الأباعد، وهى مصدر من تكلّله النسب، أى تطرفه كأنه أخذ طرفه من جهة الوالد والولد، فليس له منهما أحد، فسمى بالمصدر. والعرب تقول: هو ابن عم الكلالة، وابن عم كلالة؛ إذ لم يكن لحاً، وكان رجلاً من العشيرة.

والكَلُّ: بمعنى العبء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النحل - الآية ٧٦].

وكلّت الرحم بين فلان وفلان؛ إذا تباعدت القرابة، وحمل فلان على فلان ثم كلّ عنه؛ إذا تباعد.

وقد يطلق لفظ الكلالة ويراد به الوارث كقول الشاعر:

والمرء يبخل بالحقو ق وللكلالة ما يُسِم

من أسام الإبل إذا أخرجها للمرعى. ولم يقصد الشاعر بما ظنه هذا، وإنما خص الكلالة ليزهد الإنسان فى جمع المال، لأن ترك المال له أشد من تركه للأولاد. وتنبهنا أن من خلفت له المال فجار مجرى الكلالة، وذلك كقولك ما تجمعه فهو للعدو.

ودليل معنى الكلالة الوارث؛ ما روى عن جابر قال: مرضت مرضاً أشفيت منه على الموت، فأتانى النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله إنى رجل لا يرثنى إلا كلالة، وأراد بذلك أنه ليس له والد ولا ولد.

وقد يراد باللفظ الموروث ومنه قول الفرزدق:

ورثتم قناة المجد لا عن كلالة عن ابنى مناف عبد شمس ونوفلا

ومعناه: أنكم ما ورثتم الملك عن الأعمام، بل عن الآباء، فسمّى العم كلالة.

وجاء فى مفردات الراغب: الكلالة؛ مصدر يجمع بين الوارث والموروث جميعاً، وتسميتها بذلك إما لأن النسب كَلّ من اللحوق به. وإما لأنه قد لحق به بالعرض من أحد طرفيه. وذلك لأن الانتساب ضربان، أحدهما: بالعمق كنسبة الأب والابن، والثانى

الأولى: فـي الآية التي بـين أيدينا، والتي تبين نصيب الإخـوة والأخوات لأم بدليل أنصباء الورثة، ولقراءة سعد بن أبي وقاص (شاذاً) وله أخ أو أخت من أمه.

الثانيـة: في آخر آية من السـورة وهي قولـه تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴿١٧٦﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ١٧٦] لبيان أنصباء الإخوة والأخوات الأشـقاء أو لأب؛ بدليل أنصباء الورثة.

(تعضلوهن)

فـي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١٩].

العضْل: جمع عَضَلة؛ وهي كل لحمة مجتمعة ممتلئة في عصبة. وعضل أيِّمة؛ منعها من التزويج، وعضَل المرأة عن الزوج: حبسـها، وعضل في أمره تعضيلا: ضيق من ذلك، وحال بينه وبين ما يريد ظلما، وعضل بهم المكان: ضاق.

فالعضْل: هو الإحالة بين الإنسـان وبين ما يريد، ومنعه عما يرغب بتضييق شـديد من العاضل، بما يسبب ألماً نفسياً وضيقاً بالغاً للمعضول.

وكل ما ورد من هذا اللفظ في القرآن فهو بنفس المعنى:

ففي سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴿٢٣٢﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ٢٣٢].

ولم يرد اللفظ في القرآن إلا في سـورتي البقرة والنسـاء على ما ذكرت. والمخاطب في آية النساء على وجوه:

الزوج: إذا كره زوجته ويريد مفارقتها، فهو يُضيّق عليها حتى تفدى نفسها منه.

الوارث: يمنع المرأة من التزوج بمن شاءت ليأخذ ميراثها.

الأوصياء: وكانوا يمنعون من يتولون أمورهن من النساء الزواجَ للانتفاع بمالهن.

والعضل بمعنى الحبس فى لغة أزد شنوءة، وهو من الألفاظ التى وقعت فى القرآن بغير لغة الحجاز.

(أفضى)

فى قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٢١].

الفضاء: المكان الواسع من الأرض. وفضا المكان، وأفضى إذا اتسع، ويقال: أفضت إذا خرجت إلى الفضاء، وأفضيت إلى فلان بسرى، وأفضى فلان إلى فلان أى وصل إليه. وأصله أنه صار فى فرجته وفضائه وحيزه. وأفضى الرجل: دخل على أهله، وأفضى إلى المرأة: غشيها.

قال الراغب الأصفهانى: وأفضى إلى امرأته فى الكناية أبلغ وأقرب إلى التصريح من قولهم خلا بها.

يتبين لنا مما سبق أن اللفظ فى الآية يحمل المعانى الآتية:

أفضى بعضكم إلى بعض: اختليتم فى مكان واحد. وذلك للرجل وزوجه.

أفضى بعضكم إلى بعض: باشر الرجل زوجه وغشيها. وقد رتب الفقهاء على ذلك أحكاماً:

على المعنى الأول قرر بعض الفقهاء أن من حق الزوجة كل المهر بمجرد الخلوة الصحيحة.

وعلى المعنى الثانى. فإن الرجل إذا طلق قبل أن يمس زوجته له أن يرجع فى نصف المهر وإن خلا بها.

إلا أن الفخر الرازى يرى أن (أفضى) فى هذه الآية بمعنى جامع، ويعلل ذلك بقوله: لأن أفضى فلان إلى فلانة، صار فى فرجتها وفضائها. وذلك لا يكون إلا فى الجماع، وقد ذكر الله ذلك فى معرض التعجب، والتعجب إنما يتم إذا كان هذا الإفضاء سبباً قوياً فى حصول الألفة والمحبة، وهو الجماع لا مجرد الخلوة. فوجب حمل الإفضاء عليه. والحرف (إلى) لانتهاء الغاية. ومجرد الخلوة ليس كذلك لأن عند الخلوة المحصنة لم يصل فعل من أفعال واحد منهما إلى الآخر. فلا يكون معنى الإفضاء إلا باشر وجامع.

وهذا هو الرأى الذى أميل إليه، وأن (أفضى) فى الآية الكريمة بمعنى باشر وجامع لما ذُكر من أسباب.

ويلاحظ أن اللفظ (أفضى) لم يرد فى القرآن كله إلا فى سورة النساء، وما تردد فى السورة سوى هذا الموضع. وهو لفظ عربى بلغة خزاعة؛ بمعنى الجماع.

(ربائب)

فى قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٢٣].

جاء فى الصحاح: رَبَّ ولده من باب ردّ، وربيه وتربيه بمعنى؛ أى رباه. وربيب الرجل: ابن امرأته من غيره، وهو بمعنى مربوب والأنثى ربيبة.

والربيبة: واحدة الربائب من الغنم التى يربيها الناس فى البيوت لألبانها. وغنم ربائب؛ تُربط قريباً من البيوت وتعلف لا تسام. والربوب والربيب بمعنى مربوب وهو ابن امرأة الرجل من غيره. ويقال لزوج الأم لها ولد من غيره، ويقال لامرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها، والرجل نفسه يقال له رابٌّ.

فاللفظ فى الآية؛ يقصد به بنات المرأة ليسوا من زوجها الحالى، لكنه يقوم بتربيتهن ورعايتهن، فصرن منه بمنزلة البنات الصُّلبية.

وقد علق الفقهاء على هذا المعنى حكماً؛ بأن بنت زوجته إذا لم تكن فى تربيته فله أن يتزوجها، واحتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ فقوله: فى حجوركم؛ يقتضى أنه مَن ليست فى حجره وتربيته وكفالته فله أن يتزوجها، ولا يقال لها ربيبة، واحتجوا - أيضاً - بما روى عن على - رضى الله عنه - أنه قال: الربيبة إذا لم تكن فى حجر الزوج وكانت فى بلد آخر، ثم فارق الأم بعد الدخول، فإنه يجوز له أن يتزوج الربيبة محتجاً بقوله تعالى: ﴿فِى حُجُورِكُم﴾..

والجمهور على تحريم الربيبة سواء كانت فى حجر الزوج أم لم تكن كذلك. وقد بَيَّنتُ ذلك فى باب الدراسة الفقهية.

على أن لفظ ربائب ومادته بالمعنى السابق لم يرد فى القرآن كله إلا فى سورة النساء ولم يتردد فى السورة إلا فى هذا الموضع فهو من معجمها.

(مسافحين)

فـى قولـه تعـالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ٢٤] السفح: عرض الجبل، حيث يُسفح فيه الماء، وقيل أصله؛ والجمع سفوح، ويطلق السفح على الصخور اللينة المنزلقة. وسَفَح الدمعَ: أرسـله. والسفح للدم كالصب. والتسافح والسـفاح والمسافحة: الزِّنى والفجور. والمسافِحة: الفاجرة، والرجل السَّفَاح على ثلاثة أوجه:

السفاك للدماء؛ لأن يقتله الناس الكثر؛ يجعل دماً كثيرة تسيل.

أو المعطاء؛ دلالة على عطائه الكثير.

أو الرجل الفصيح؛ أى ذَلِق اللسان الذى يتكلم كلاما كثيرا فيما يفيد.

وسافحها مسافحة: زاناها، لأن كل واحد منهما يسفح ماءه ويضيعه. وفى النكاح غنى عن السِّفاح.

وقد سمى الزنى سفاحاً؛ لأنه من غير عقد، كأنه بمنزلة الماء المصبوب الذى لا يحبسه شيء، وكل واحد منهما دَفَق ماءه بلا حرمة أباحت دفقه.

وجـاء اللفـظ فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع؛ ثلاثة منها كناية عن الزنى، وواحدة بمعنى إهراق الدم على النحو التالى:

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
١	﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾	٢٤	النساء	غير زانين
٢	﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾	٢٥	النساء	غير مجاهرات بالزنا
٣	﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾	٥	المائدة	غير مجاهرين بالزنا
٤	﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾	١٤٥	الأنعام	سائلاً مهراقًا

(العنت)

فـى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ ﴿٢٥﴾﴾ [سـورة النساء – الآية ٢٥].

العنت: دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة، ويكون بمعنى الهلاك. وأَعْنَتَه: أوقعه فى الهلكة.

والعنت: الزنا والهلاك فيه. وأصله انكسـار العظم بعد الجبر، فاسـتعير لكل مشـقة وضـرر. واختُـص لفظ العنت من بين الألفاظ التـى وردت بمعناه فى القرآن بأن أُضيف إلى الزنـا، والآية تصف العلاج للذين لا يسـتطيعون نكاح الحرائـر فينكحون الإماء إذا خافوا الوقوع فى الهلكة بارتكاب الزنا، أو خافوا على أنفسـهم عنتاً من شـدة الإربة التى تؤدى إليه، أو خافوا حد الزنا فى الدنيا والعقاب المترتب عليه فى الآخرة، أو خشوا عنتاً يكون بسبب تأنيب الضمير بما ارتكبوا.

وأى مرادف للفظ (العنت) لا يؤدى ما أدّاه ولا ينسـجم مع النظم فى الآية؛ فلو وضعنا لفظـاً من مرادفاته كالمشـقة – مثـلاً – لأحدث خللاً فى نظم الآية، فلفظ (المشـقة) يكون مسـبوقاً بالفعل (خشـى) فيتكرر فى اللفظين حرف واحد هو الشين، مما يحدث ثُقلا فى النطق، وخللاً فى النظم. فضلاً عن أنه لا يؤدى ما أداه لفظ (العنت) من معنى فى الآية.

واللفظ عربى بلغة هذيل، وهو عندهم بمعنى الإثم.

وقد ورد لفظ العنت فى القرآن الكريم على النحو التالى:

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
١	﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٢٢٠	البقرة	كلفكم ما يشق عليكم
٢	﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾	١١٨	آل عمران	أحبُّوا مشقتكم الشديدة
٣	﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾	٢٥	النساء	خـاف الزنـا أو الإثم بالوقوع فيه

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
٤	﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾	١٢٨	التوبة	عنَتُكم ومشقتُكم
٥	﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾	٧	الحجرات	لأثمتم وهلكتم

(نشوزهن)

فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٣٤].

النَّشْزُ والنَّشَزُ: المتن المرتفع من الأرض، ونَشَز الشيء ينشز نشوزاً: ارتفع. ونشز فى مجلسه ينشِز وينشُز (بالكسر والضم) ارتفع قليلا، وانشاز عظام الميت: رفعها إلى مواضعها، وتركيب بعضها إلى بعض. والنشوز بين الزوجين: كراهة كل واحد منهما صاحبَه. ولفظ (نشز) فى الآية هو خوف استعلاء الزوجة على زوجها، وادعاؤها الفضل عليه لمالها أو تدللها بجمالها، أو حسبها. لذا فإن الأمر للأزواج بموعظتهن بالحسنى أولاً، وتذكيرهن بحقوق الزوج، فإن استجابت الزوجة فبها، وإلا فيهجرها فى مضجعها وحرمانها - مؤقتاً - من داعية التزوج لتثوب إلى رشدها وتعلم فضله عليها.

لكن من النساء من لا يعترفن إلا بسلطان القوة والقهر؛ فالأمر يوجه حينئذ بضربهن ضرباً غير مبرح؛ لإحكام القوامة عليهن. وإن فشلت كل الأساليب السابقة فيكون، استدعاء حَكم من أهله وحكم من أهلها للإصلاح بينهما.

والجدول التالى يبين ما جاء من مادة (نشز) فى القرآن كله وبيان معناها فى كلٍ:

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
١	﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾	٢٥٩	البقرة	نرفعها من الأرض لنؤلفها

م	الآية التى ورد بها اللفظ	رقمها	السورة	معنى اللفظ فيها
٢	﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾	٣٤	النساء	تَرَفُعهن عن مطاوعتكم
٣	﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾	١٢٨	النساء	تجافيًا عنها ظلما
٤	﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾	١١	المجادلة	انهضوا للتوسعة أو لعبادة أو لخير

(راعنا)

فى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٦].

أرعنى سمعك، وراعنى سمعك: أى استمع إلى، وأرعيت فلاناً سمعي: إذا استمعت إلى ما يقول وأصغيت إليه. ورُوى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن (راعنا) سبٌّ بلسان اليهود، وهى كلمة كان يذهب بها اليهود – عليهم اللعائن – إلى سبِّ النبى ﷺ اشتقوه من الرعونة بمعنى الحمق، وقيل: إنه يشبه كلمة سبٍّ عندهم عبرانية أو سريانية وهى (راعينا)، وقيل: بل كانوا يشبعون كسر العين ويعنون لعنهم الله أنه – وحاشاه – من خَدَمِهم ورعاة غنمهم. وقد كانوا يقولون ذلك مظهرين الاحترام والتوقير، مضمرين ما يستحقون به جهنم وبئس المصير. ولذا فإن الله – تعالى – نهى المسلمين أن يقولوا هذه الكلمة لاشتراك معناها بين قصدهم الحسن وقصد اليهود السيئ، والنهى سد للذريعة. وأُمِروا أن يقولوا (انظرنا) لخلوه عن ذلك الاحتمال الملزوم، وهو من النظر أو الانتظار، وقيل: إنما نُهى المسلمون عنها لما فيها من الجفاء وقلة التوقير.

ولم يرد اللفظ فى القرآن خلا هذا الموضع، إلا فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ١٠٤] واللفظ – فى آية النساء – يبين نوايا اليهود السيئة، ويهتك أسرارهم وما يضمرونه للنبى ﷺ ومن ثم لا يستطيع لفظ من مرادفاته أن يؤدى معناه الذى قصده اليهود.

(شَجَرَ)

فـي قوله تعـالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سـورة النساء – الآية ٦٥]
شجر بين القوم: أى اختلف الأمر بينهم. وبابه تداخل ودخل، واشتجر القوم وتشاجروا: تنازعوا، والمشاجرة: المنازعة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة النساء – الآية ٦٥]
أى فيما وقع الاختلاف فى الخصومات حتى اشتجروا وتشاجروا: أى تشابكوا مختلفين.. وكل ما تداخل فقد تشـاجر واشـتجر حتى قيل لخشبات الهودج شِجار؛ لتداخل بعضها فى بعض. قال أبو مسـلم الأصفهانى: وهو مأخوذ عندى من التفاف الشـجر. فإن الشجر يتداخل بعض أغصانه فى بعض.

ولم يرد اللفظ فى القرآن كله إلا فى هذه السـورة، وما تردد فى السورة إلا فى هذا الموضع منها فهو من الألفاظ الخاصة بالسورة. وأى مرادف له لا يؤدى ما أداه اللفظ.

(ثُبات)

فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾
[سورة النساء – الآية ٧١] ثبات: جماعات متفرقة، واحدتها ثُبَة (بضم الثاء وفتح الباء).
قال صاحب اللسـان: الثُبَة: العصبة من الفرسـان، والجمع ثبات وثبون وثبون (بضم الثاء فى الثانية وكسـرها فى الأخيرة)، وتصغيرها ثبيـة، والثبة والأثبية: الجماعة من الناس. وثَبَيْـتُ الجيش؛ إذا جعلته ثبة ثبة. والثبة وسـط الحوض الـذى يثوب إليه الماء. والهاء عوض عن الواو الذاهبة من وسطه لأن أصلها ثوب.

وجاء فى معترك الأقران أن (ثبات) جمع ثبة، أى جماعات متفرقة حلقة حلقة كل جماعة منها ثبة، ووزنها فعلة بفتح العين، ولامها محذوفة. وقيل: إن الثبة ما فوق العشرة.

وقوله: «فانفروا ثبات» أى اخرجوا للجهاد جماعات متفرقة أو جماعات فيها إشارة إلى السـرايا، فمن خرج بها فهو كالمجاهد. قال رسـول الله ﷺ: «لولا أن أشق على المؤمنين ما قعدت خِلاف سرية»[1].

(١) صحيح مسلم رقم (١٨٦٧)

واللفظ (انفروا) بمعنى: اغزوا بلغة هذيل.

ولم يرد لفظ (ثبات) فى القرآن كله إلا فى سورة النساء وما تردد فيها إلا فى هذا الموضع منها، فهو من معجمها.

(ليبطئن)

فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [سورة النساء - الآية ٧٢].

الإبطاء: ضد الإسراع، جاء فى اللسان: البطء والإبطاء نقيض الإسراع، تقول بطؤ مجيئك، وبطؤ فى مشيه يبطؤ بطأ وإبطاء وتباطأ وهو بطيء.

ويكون الفعل (بَطُؤَ) لازماً ومتعدياً. فلك أن تقول ما أبطأك عنا، على أنه لازم، ويجوز بطأت فلانا على كذا، أى أخرته فهو متعدٍ.

وقد قصد به فى الآية الكريمة المعنيان. لأنها فى المنافقين الذين كانوا يتأخرون عن القتال ويتباطئون عنه خوفاً على أنفسهم من الموت وملاقاة العدو، ثم هم يُثَبِّطون هِمَمَ غيرهم؛ فيؤخرونهم عن القتال. واللام التى بها للقسم؛ تأكيداً لتأخرهم عن القتال. وشددت الطاء والنون (حرفان فى كلمة واحدة) لتدل على ثقل الحركة ومحاولاتهم المتكررة فى تثبيط همم المحاربين.

واللفظ من معجم ألفاظ السورة لأنه لم يتكرر فى القرآن إلا فى هذا الموضع منها.

(يستنبطونه)

فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء - الآية ٨٣].

النبيط: الماء الذى ينبط من قعر البئر الذى حفر، وأنبطنا الماء: استنبطناه وانتهينا إليه، واستنبطه واستنبط منه علماً وخيراً ومالاً: استخرجه. واستنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه.

و (منهم) فى الآية لابتداء الغاية يتعلق بالفعل. والضمير المجرور يعود إلى الرسول ﷺ وأولى الأمر. وقيل: إن الذين يستنبطونه هم أولو الأمر، والضمير المجرور عائد عليهم.

و (منهم) لبيان الجنس ويكون استنباطهم - على هذا - هو سؤالهم عنه النبى ﷺ أو بالنطق والبحث.

وعلى التأويل الأول فإن استنباطه؛ هو سؤال الذين أذاعوه للرسول ﷺ ولأولى الأمر.

واللفظ من معجم ألفاظ السورة؛ لأنه ما ورد فى القرآن إلا فيها وفى هذا الموضع منها بالذات.

(مقيتا)

فى قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٨٥].

مقيتا: مشتقة من القوت؛ وهو ما يمسك الرمق من الرزق، وما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. يقال: ما عنده قوت ليلة، وقيت ليلة. فلما كُسرت القاف صارت الواو ياء.

والمقيت من أسماء الله تعالى؛ بمعنى الحفيظ المقتدر الذى يعطى أقوات الخلائق. وهو من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته.

وأقاته - أيضاً - إذا حفظه. وعلى هذا المعنى فالمقيت هو الحفيظ الذى يعطى الشىء على قدر الحاجة.

وقد جاء فى مسائل نافع ابن الأزرق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن مقيتا؛ بمعنى قادر مقتدر، واستشهد على ذلك بقول أحيحة الأنصارى:

وذى ضغن كففتُ النفس عنه وكنت على إساءته مقيتا

فكلمة مقيتا ذات معنين؛ الأول من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته.

والثانى: الحفيظ الذى يعطى الشيء على قدر الحاجة.

وفى الآية - على المعنى الأول - أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع والمشفوع فيه، خيراً أو شراً غير منقوص.

وعلى المعنى الثاني: أنه تعالى حافظ الأشياء، وشاهد عليها، لا يخفى عليه شىء من أحوالنا، فهو عالم بأن الشافع يشفع فى حق أو باطل حفيظ عليه فيجازى كلاً بما علم منه.

واللفظ (مقيتا) بمادة (قوت) لم يرد فى القرآن كله إلا فى سورة النساء وما جاء فيها إلا فى هذا الموضع فهو من معجمها.

(أركسهم)

فـى قوله تعـالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴿٨٨﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ٨٨] الرِّكْسُ: شـبيه بالرجيع، وقد أتى النبى ﷺ بروث فى الاسـتنجاء فقال: «إنه رِكْس»[1]. ويقال: ركسـت الشيء وأركسته إذا رددته ورجعته. والرَّكْسُ: قلب الشـيء على رأسـه، أو ردّ أوله على آخره، رَكَسَه، يركسه ركسـاً فهو مركوس وركيس. والارتكاس: الارتداد، وارتكس فلان فى أمر كان نجا منه.

والآية فى وصف المنافقين وبيان جزائهم، وأنه – تعالى – ردّهم إلى أحكام الكفار من الذل والصغار والسبى والقتل بما كسبوا: أى بما أظهروا من الارتداد بعد ما كانوا على النفاق.

وأى لفظ لـ (أركسهم) لا يؤدى معناه، ولا يقوم مقامه، ذلك لأننا لو جعلنا بدلاً منه لفظ (أرجعهم) أو (ردّهم)، لما بيَّن أىٌّ من اللفظين الحالة التى رُدَّ إليها المنافقون. وأنهم رجعوا إلى الكفر، ولكن اللفظ (أركسـهم) يخبر عن عودتهم إلى الكفر ويبين حالهم أثناء العود إلى الذل والامتهان والوضاعة، وأنه لا قيمة لهم إلا أنهم صاروا كالرجيع فى ارتدادهم.

ولم يرد اللفظ فى القرآن كله إلا فى سورة النساء وجاء فى موضعين منها:

الأول فى الآية التى بين أيدينا.

الثاني: فى قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴿٩١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٩١].

وقد استخدم العرب هذا اللفظ بمعنى (الحبس). ففى مسائل نافع بن الأزرق التى سأل ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: أخبرنى عن قوله تعالى: (أركسهم) قال: حبسهم، أما سمعت قول أمية:

أُركِسوا فى جهنم إنهم كا نـوا عتـاة تقول كذباً وزرا

(مراغما)

فى قوله تعـالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴿١٠٠﴾﴾ [سـورة النساء – الآية ١٠٠].

الرَّغام: (بالفتح) التراب، وأرغم الله أنفه: ألصقه بالرَّغام. والمراغمة: المغاضبة. يقال:

(١) صحيح. البخارى رقم (١٥٦). وانظر أحكام القرآن لابن العربى ٦/ ١٤٢

راغم فلان قومه؛ إذا نابذهم وخرج عليهم، ومنه حديث أسماء: إن أُمّى قدِمت عليَّ راغمة أفأصِلُها؟ قال: نعم. تريد أنها قدمت غضبى لإسلامى وهجرتي، أو كارهة مجيئها إلىّ لولا مسيس الحاجة.

والمراغَم: المذهب والمهرب، والمتطول فى حال هجرة، وهو اسم الموضع الذى يراغم فيه، وقد سمى مهاجراً ومراغماً؛ لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه، وهجرهم فسُمى خروجه مراغماً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾، أى يجد عزة ومنعة وخيراً ونعمة، مما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا سبباً فى خروجه بما يجعلهم يأسون ويأسفون من معاملتهم له وهو بينهم. يؤيد ذلك – فى نظرى – قوله (وسعة) بعد مراغماً، فالسّعة إما أن تكون سعة فى الرزق، أو سعة فى الأرض بمفارقة أعدائه، أو سعة ومتنفساً فى دينه؛ بإقامة شعائره دون خوف أو ضيق.

واللفظ (مراغما) من ألفاظ سورة النساء الخاص بها لأنه ما ورد فى القرآن إلا فيها، ولا تردد فيها إلا فى هذه الآية.

واللفظ (مراغما) بمعنى: متنفساً بلغة هذيل كما رُوى عن ابن عباس وقد استشهد لذلك بقول الشاعر:

وأترك أرض جهرة إن عندى رجاءً فى المراغم والتعادى

(فَلَيُبَتِّكُنَّ)

فى قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١١٩].

البَتْك: القطع. ورُوى عن الليث؛ أنه قطع الأذن من أصلها، وبتْك الآذان؛ قطعها، والأصل فيه أن تقبض على شيء بيدك كشعر أو ريش أو نحو ذلك، ثم تجذبه إليك حتى ينقطع فينبتك من أصله وينتف، وكل طائفة صارت فى يديك من ذلك اسمها بتكة. وسيف باتك أى صارم. قال الواحدى: التبتيك – ها هنا – هو قطع آذان البحيرة بإجماع المفسرين؛ وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وقال آخرون: المراد أنهم يقطعون آذان الأنعام نُسُكاً فى عبادة الأوثان.

ومـن مرادفات البتك: البت. ولكنه يقال فى قطع الحبل والوصل – كما يقول الراغب الأصفهانى – ويقال: طلقت المرأة بتّةً وبتلة، وبَتَتُّ الحكم بينهما. وروى: لا صيام لمن لم يبت العزم من الليل.

وعليـه فـإن البتُّ، وهو المرادف للبتك لا يصلح فى هـذا الموضع من الآية الكريمة؛ إذ لا يعنى القطع والشـق معاً، فاللفظ (بتك) فى موضعه يحتمل معنى القطع. ويحتمل شـق الأذن. لأنهم كانوا يشقون آذان الأنعام تقرباً للآلهة، أو تمييزاً لها عن غيرها، مما لم تلد خمسة أبطن وجاءت في الخامسة بذكر.

وقد شـددت التاء وألحِق باللفظ نون التوكيد الثقيلـة، لبيان كثرة فعلهم ومبالغتهم فى القطع أو الشـق. ولم يرد لفظ (فليبتكن) فى القرآن كله إلا فى هذا الموضع من سـورة النساء فهو من معجمها.

(يَسْتَنْكِف)

فـى قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٧٢].

النكف: تنحيتك الدمع عن خديك بأصبعك، تقول: نكفت الدمع أنكفه نكفاً إذا نحيته عن خدك بإصبعك.

وغيث لا ينكف: لا ينقطع، ونكف الرجل عن الأمر (بالكسـر) نكفاً واسـتنكف: انف وامتنع، ورجل نكف: يستنكف منه.

والمفسـرون يقولون: الاستنكاف والاسـتكبار واحد، ومعنى: لن يستنكف – فى الآية – لن يستكبر أو يمتنع فاللفظ فى الآية مأخوذ من النكف وإمناع الدمع عن الخد.

ولا يستطيع لفظ (يستكبر) وهو مرادف (يستنكف) أن يؤدى ما أداه ذلك؛ لأن الاستكبار هـو التعاظم والتعالى. والمُتَحدَّث عنه نبى، ولا يليق لفظ (يسـتكبر) فى مقام النبوة وخاصة على الله تعالى.

والآيـة نزلت فى وفـد نجران الذين قالوا للنبى ﷺ: لمَ تعيـب صاحبنا؟. قال: ومن صاحبكم؟. قالوا: عيسى. قال: وأى شىء قلت؟. قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله. قال: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله.

وهذه الآية إشارة إلى حكاية شبهتهم بالإجابة عنها. وذلك أن الشبهة التى عولوا عليها

فى إثبات أنه ابن الله، هو أنه كان يخبر عن المغيبات، ويأتى بخوارق العادات من الإحياء والإبراء، فكأن الله – تعالى – يقول لهم: لن يستنكف المسيح بسبب هذا القدر من العلم والقدرة أن يكون عبدا لله تعالى.

وقد تردد اللفظ فى السورة فى معرض الرد على النصارى ثلاث مرات: مرتين فى الآية ١٧٢ بصيغة المضارع، ومرة فى الآية ١٧٣ بصيغة الماضى لتأكيد عدم استنكاف السيد المسيح عن عبادة الله وبيان جزاء من يستنكف عن عبادته تعالى ويستكبر. وما ورد اللفظ فى القرآن الكريم إلا فى سورة النساء.

❑❑❑

الفصل الثانى

الإعجاز الدلالى
تراكيب سورة النساء

تركيب الجملة (الآية) فى سورة النساء:

دراسة للتراكيب فى سورة النساء، وعلاقة كل تركيب بما قبله وما بعده، وعلاقة السورة بما قبلها وما بعدها من السور؛ إذ إن التركيب في القرآن من أسرار إعجازه. وهذه الدراسة تتصل اتصالاً وثيقاً بدراسة الكلمة أو اللفظ القرآنى الذى هو أساس الجملة ونواتها؛ إذ أن الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لها السمع، ويهدأ لها القلب، ويتملاها العقل بالنظر والتأمل لما فيها من نظم رائع وأداء محكم؛ فأحياناً تفيد الجملة القرآنية معنى متكاملاً بأقل عبارة دون خلل فى التركيب أو ضعف فى الأداء، وأحياناً تطول الجملة وتتردد الكلمة الواحدة فيها فترسخ فى الأذهان دون ملل أو سأم، وحينا تتضافر الكلمات والحروف فى الجملة القرآنية لتبث فى المعنى حركة وروحا فيستحيل المعنوى إلى محسوس له صفات الكائن الحى.

ومن ثم فإن هذا الفصل دراسة لتراكيب السورة؛ باعتبار الآية جملة من حيث أحوال الإسناد الخبرى، وأحوال المسند، والمسند إليه، ومتعلقات الفعل، والقصر، والإنشاء، والإيجاز، والاطناب، والمساواة، وكلها من أبواب علم المعانى.

وأما التلاؤم الصوتى بين هذه التراكيب فهو دراسة وجوه تحسين الكلام بما فى التركيب من محسنات معنوية ولفظية، وهى مهمة علم البديع، ثم ملاءمة هذه التراكيب لدلالاتها، ومعرفة كيف استطاع التركيب أن يظهر المعنى ويوضحه.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١] هذه الآية مفتتح سورة النساء بدأها الله – تعالى – بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إيقاظاً

للسامع، واعتناء بالخطاب المتلوّ قال الزمخشرى: (يا) حرف وضع فى أصله لنداء البعيد، صوت يَهتِف به الرجل بمن يناديه. وأما نداء القريب فله (أى) و(الهمزة)، ثم استعمل فى مناداة من سها وغفل وإن قرب، تنزيلاً له منزلة من بَعُد، فإذا نودى به القريب المقاطن؛ فذلك للتأكيد المؤذِن بأن الخطاب الذى يتلوه معنىً به جدا[1].

وقد تضمنت الآية مجمل ما جاء فى السورة من موضوعات؛ ففيها أمر الناس بتقوى الرب الذى خلقهم من نفس واحدة، وهذا أدل على كمال قدرته، وأنه فاعل مختار قادر على كل المكنات، عالم بكل المعلومات، فيجب الانقياد لكل تكليف من تكاليفه، والبعد عن كل نهى من نواهيه التى جاء ذكرها فى السورة بعد ذلك.

وقد ذكر - بعد الأمر بتقوى الرب الذى خلق الناس من نفس واحدة - أنه خلق من هذه النفس زوجها إلى أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تقوم على المساواة، وإنقاذا لوضع المرأة المهين الذى كانت عليه فى الجاهلية.

ثم ذكرت الآية أن الناس كلهم من أصل واحد ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ تشير بذلك إلى حقوق العباد بعضهم على بعض كالمعاملات، والأخلاق، والآداب التى ورد ذكرها فى السورة. ثم خصت نوعية من الناس تكون العلاقة معهم أوثق، والربط بهم أوكد وهم الوالدان، ثم الأهل والأقارب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ تنبيها من السورة إلى حقوق كل من هؤلاء. قال صاحب الكشاف: (أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم؛ فلا يقطعون ما يجب عليهم وصله فقيل: اتقوا ربكم الذى وصل بينكم، حيث جعلكم صنوانا مفرّعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليها ولا تغفلوا عنه، وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة[2].

وهذا لون من ألوان البديع يسمى براعة استهلال (وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم به ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله[3].

وقد بدأت سورة النساء بما ختمت به سورة آل عمران من الأمر بالتقوى فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

(١) تفسير الكشاف ١/ ١٧٣.

(٢) نفس المصدر ١/ ٣٤٤.

(٣) الإتقان للسيوطى ٢/ ١٣٦.

[سورة آل عمران – الآية ٢٠٠] وذلك من أكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور وهو نوع من أنواع البديع يسمى تشابه الأطراف[١].

وقد تكرر اللفظ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ و ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. وتكرر الفعل ﴿وَخَلَقَ﴾ فى قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لإظهار ما بين الخلقين من التفاوت؛ فاللفظ ﴿خَلَقَ﴾ الأول بطريق التفريع من الأصل، والثانى بطريق الإنشاء من المادة، وبتكرار اللفظ يتحقق إيقاع موسقى عذب؛ لقيام التكرار على وحدات متساوية. يقول الدكتور محمد على رزق الخفاجى: فالتكرار من الناحية اللفظية قد يحقق إيقاعاً موسيقياً إذا كان قائماً على وحدات متساوية من الأصوات التى اتصفت بالحسن، أما إذا قام التكرار على أصوات أو ألفاظ توصف بالثقل أو الغرابة فإنها تؤدى إلى نتائج عكسية، وهى التنافر وقبح الوقع فى المسامع[٢].

وأما تكرار الأمر بالتقوى فإنه للترغيب أولاً، ثم أعيد مرة أخرى للترهيب.

وقوله تعالى: [تَسَاءَلُونَ] بإدغام التاء والسين لاشتراكهما فى صفة واحدة؛ وهى الهمس فأمكن التماثل بامتزاج الصوتين ليكونا صوتا واحداً، وذلك للتخفيف والخلوص من الثقل الذى ينتج من تجاوز الأصوات المتضادة فى الصفات[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ حذف وصف النساء، بينما صرح به عند ذكر الرجال فالتقدير – والله أعلم – وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء كثيرات وقد وقع الحذف لقيام الدليل عليه فى قوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾ إذ الواقع فى كل ذكورة أن تكون أقل من الأنوثة فى العدد[٤] فإذا وصف الرجال بـ ﴿كَثِيرًا﴾ فيقتضى فى النساء أكثر، والحذف فى هذا المقام أفصح من الذكر. قال الإمام عبد القاهر: الحذف باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت

---

(١) أسرار ترتيب القرآن. للسيوطى ص ٩٠.

(٢) فى كتابه علم الفصاحة العربية – ص ١٦٤

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

(٤) وقد لاحظنا ذلك فى قاعات المحاضرات وسألت نفسى عن السر فى ذلك إلى أن ألهمت أنه ربما كان ذلك لتوسيع دائرة الألفة بين الناس، فلو كان عدد الرجال أكثر لانحصرالزواج فى الأقارب فقط ولما رضى الأب أن يُبعد ابنته فى الزواج بعيدا عنه والرجال ـ فى محلته ـ كُثُر.

عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون إذا لم تُبِن[1].

ثم ما بين ﴿رِجَالًا﴾.. ﴿وَنِسَآءً﴾ من طباق لإبراز المعنى بذكر اللفظ وضده.

ثم فى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [سورة النساء - الآية ١] تأكيد لرقابة الله الدائمة المستمرة لعباده، ووقع التأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾. واسميه الجملة التى تفيد الدوام والاستمرار.

وأما تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فذلك لبيان اختصاصهم بالمراقبة ووقوعها عليهم، وذلك لاستدراك مايمكن أن يقعوا فيه من أخطاء، وللمحافظة على الجَرْس؛ ليكون ختام آية الافتتاح متناسباً مع بقية ختام الآيات التى تأتى بعد ذلك. قال السيوطى: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين، وإلحاق النون؛ وحكمته؛ وجود التمكن من التطريب بذلك كما قال سيبويه: أنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والباء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا. وجاء فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع[2].

قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [سورة النساء - الآية ٢].

أمر ونهيان: والأمر هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء، والنهى هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء أيضاً، ولا صيغة له إلا مع الفعل المضارع مسبوقاً بـ (لا) الناهية.

وقد عطفت الجمل السابقة لتأكيد كل من الأمر والنهى، والتنفير من عدم رد أموال اليتامى إليهم وقت بلوغهم، واستبدال الطيب من أموال اليتامى بالخبيث من أموالهم، والأمر والنهى لأوصياء اليتامى. فكأن الأفعال التى جاءت فى الجمل السابقة فى الآية الكريمة موجهة إلى فاعل واحد، وذلك مما يزيد معنى الجمع فى الواو قوة وظهوراً. قال الإمام عبد القاهر الجرجانى: واعلم أنه إذا كان المُخْبَر عنه فى الجملتين واحداً؛ كقولنا هو يقول ويفعل ويضر وينفع ويسىء ويحسن... وأشباه ذلك، زاد معنى الجمع فى الواو قوة وظهوراً وكان الأمر حينئذ صريحاً[3].

---

(١) دلائل الإعجاز - ص ١٠٤..١٩٦٠.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ٢/ ١٣٤.

(٣) دلائل الإعجاز .ص ١٥١.

ثم يبين الله تعالى – فى الآية السابقة – أن أكل أموال اليتامى بأى صورة من الصور جرم كبير وذنب عظيم فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ مؤكّدا وقوع الإثم بـ (إن) واسمية الجملة، وتنكير لفظ ﴿حُوبًا﴾؛ أى إثما لا يُعرف مداه، ثم وصف الحوب بأنه كبير؛ مبالغة فى تهويل أمر النهى عنه، كأنه قيل: إنه من كبار الذنوب العظيمة.

والجمل الفعلية التى عُطِف بعضها على بعض، تفيد التجدد والحدوث، فكأن الأمر من الله بالمحافظة على أموال اليتامى متجدد دائماً لمن يلى أمرهم على مرور الزمن.

ثم ما بين [الْخَبِيثَ والطَّيِّب] من طباق لتوضيح المعنى وزيادة النهى تأكيداً.

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٥].

عَوْد إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل لما أجمل؛ فالسفهاء هم اليتامى[1] وقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ هى فى الحقيقة أموال اليتامى، لكن الله تعالى جعلها بمثابة أموال الأوصياء ليحافظوا عليها وتنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بهم، وذلك من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٢٩]. وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النور – الآية ٦١] مبالغة فى الزجر من القتل فى الأولى، والحث على السلام وتشجيعاً عليه فى الثانية، وأما فى الآية التى بين أيدينا من سورة النساء فلجعل المال مناطاً لمعاش الأوصياء.

قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٦].

هذه الآية معطوفة على الآيات التى سبقتها بحرف العطف الواو، وهى تصحيح لأوضاع مهينة كانت فى المجتمع الجاهلى تُظلم فيه فئات مستضعفة؛ فاليتم ضعف، والأنوثة ضعف، والسَّفَه ضعف. وجاء العطف بالواو للاعتداد بشأن هؤلاء كل على حدة. وغاية الابتلاء فى قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هو بلوغهم سن النكاح، وكأن الآية تأمر أولياء اليتامى إيناس أى رشد منهم.

---

(١) كما رُوى عن سعيد ابن جبير – وانظر روح المعانى للألوسى – ٤/ ٢٠١

والشـرط فى قوله: ﴿بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ جوابه جملة شرطية جعلت غاية الابتلاء؛ ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾. والشـرط الثانـى ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ جوابه ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟﴾ وهذا الشـرط مقيِّد للشـرط الأول وهو بمنزلة الحال؛ وذلك حتى لا تدفع إليهم أموالهم ولو بلغوا مبلغ الرجال ما لم يكن حالهم الرشد. وقد عبر فى البلوغ بـ ﴿فَإِذَا﴾ وفى الإيناس بـ (إن) للفرق بينهما ظهوراً وخفاء[1].

وقد نكّر ﴿رُشْدًا﴾ للإسـراع فى رد أموال اليتامى بمجرد ظهور بوادر الرشـد منهم كما قال الزمخشـرى: هو نوع من الرشـد فى التصرف والتجارة أو طرفا من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد[2].

وتكـرار قوله تعـالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾... ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إطناب؛ لتأكيـد الدفع والحث عليه وسـرعة تنفيذه؛ إذ الإطناب؛ تأدية المعنـى بعبارة زائدة عن متعارف الأوساط لفائدة تقويته وتوكيده. وهو من أعظم أنواع البلاغة – كما يقول السيوطى – وقد نقل عن صاحب سر الفصاحة عن بعضهم قوله: البلاغة هى: الإيجاز والإطناب[3].

وأمـا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فهو لربط الشـرط بالأمر الأول فى قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. لأنه لما طال الفصل جيء به مرة ثانية؛ كى لا يكون الكلام مبتوراً ليس له طلاوة مما يجعلنا نقول: إن الإطناب فى الآية حقق نظماً بديعاً.

وقد اشـتركت المقابلـة بـين قولـه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فى تحقق النظم أيضاً.

قول الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ٧] كرر قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ عند ذكر الرجال مرة وعند ذكر النساء مرة أخرى لحث السامع على إعطاء المرأة نصيبها المفروض، ويمكن أن يطلق على هذا التكرار، تكرار لفظـى؛ فالألفاظ فى الآيتين مكررة بنفس ترتيبهـا. ويمكن أن يقال عنه – أيضاً – تكرار

---

(١) الألوسى .روح المعانى . ٤/ ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٢) تفسير الكشاف ١/ ٣٤٩.

(٣) السيوطى – الإتقان فى علوم القرآن ٢/ ٦٩ .

معنوى، والذى يقول عنه الدكتور محمد على رزق: إنه يرتبط بالإيجاز والإطناب والمساواة، كما يرتبط ارتباطاً بمقامات السامعين أو القارئين وقد استشهد على ذلك بقول الجاحظ فى استعمال القرآن للتكرار: ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد فى الكلام. كما يرى الدكتور أن التكرار لا يعيب الفصاحة إذا نتج عنه إيقاع موسيقى بألفاظ عذبة سهلة[1].

وأما قوله: للرجال... للنساء، فلبيان أحقية كل من النوعين فى النصيب. وقد وقع الطباق بينهما للتوضيح. وجاء اللفظ ﴿نَصِيبًا﴾ مكرراً للتأكيد على إعطاء نصيب كل، ثم هو مع الرجال مرة، ومع النساء أخرى إشارة ما بين النصيبين من التفاوت. وجاء اللفظ [نَصِيبٌ] نكرة غير محددة؛ لأنه يقل ويكثر تبعاً لكمية التّركة. وإلى وقت نزول هذه الآية لم يُعرف بعد نصيب الرجل والمرأة وجاء مفصّلاً فى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

وقد تقدم الجار والمجرور فى قوله: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ على عامله ﴿نَصِيبٌ﴾ الأولى، فتقدم نظيره ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ على عامله ﴿نَصِيبٌ﴾ الثانية؛ للمساواة بين الجنسين فى الحق وبيان اختصاصهم بأنصبائهم من التركة.

وأما قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فإنه بدل من (ما) فى قوله [مِمَّا تَرَكَ] بإعادة العامل؛ لبيان ما جاء فى قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، ولدفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة؛ كالخيل وآلات الحرب للرجال - كما يقول الألوسى - فلكل من الفريقين حق فى كل ما جَلَّ ودقَّ. كما قدم ﴿قَلَّ﴾ على ﴿كَثُرَ﴾[2].

وتأتى جملة البدل؛ لكون الجملة الأولى غير وافية بتمام المراد أو كغير الوافية به، والمقام الاعتناء بشأن المراد لنكتة؛ ككونه مطلوباً فى نفعه، أو نظيفاً أو لطيفاً فتنزل الثانية من الأولى منزلة البعض أو الاشتمال[3].

قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً

(١) راجع: علم الفصاحة العربية - ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) روح المعانى ٤/ ٢١١.

(٣) شرح عقود الجمان للسيوطى ص ٦٠.

فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١١] هذه الآية تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى: [لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ] وقد بيّنت الآية ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ ذلك النصيب، وبهذا يربى الله النفس على الاشتياق إلى حُكْمه فتستشرف إلى تفصيله، ويأتى الحكم بعد طلب النفس له، فيرسخ فى الأذهان ويستقر فى النفوس. وقد استخدمت الآية لفظى؛ الذكر، والأنثى؛ إيثاراً على ما مرّ ذكره فى قوله [لِلرِّجَالِ]، وذلك لاستواء الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق، وقدم الجار والمجرور [لِلذَّكَرِ] لبيان فضله، وأحكام قوامته على الأنثى، تلك القوامة التى جاءت بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣٤] وكذلك ليبين بهذا التركيب أن المكيال المنسوب إليه الرجل ويُورّث على أساسه هو الأنثى؛ إبطالاً لعادتهم فى الجاهلية من توريث الذكور دون الإناث. وقد حذف الفاعل فى قوله: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ [سورة النساء – الآية ١١] إذ التقدير: مما ترك المتوفى وقد وقع الحذف لدلالة الكلام عليه.

وسلكت الآية مسلكاً رائعاً فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله؛ فثمة رباط وثيق بينها وبين آية الكلالة فى آخر السورة فيما يتعلق بنصيب البنتين؛ ففى قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ يبيّن حكم الجمع من البنات بقوله ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾، وفى آية الكلالة، بيّن الله – تعالى – حكم الأختين الشقيقتين أو لأب فى قوله ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٧٦]، ولما كانت البنتان ألْحَق بالمورث من الأختين، لزم أن تأخذ البنتان لاغير الثلثين كالأختين؛ فجاء بالجمع فى آية [يُوصِيكُمُ] وبالمثنى فى آية الكلالة الأخيرة لنأخذ المثنى وينسحب على الجمع هناك، والمثنى هناك لينسحب على الجمع هنا[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ فلأبوى الميت، وقد جاء ضميراً للعلم به.

(١) انظر فى ذلك: تفسير القرطبى ٣/ ١٦٣٣.

لأن فى الإبدال والتفصيل بعد الأجمال تأكيداً وتشـديداً كالذى تراه فى الجمع بين المفسـر والتفسير[1].

وقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ قدم الوصية على الدَّيْن لفظاً، وإن كان الدين مقدمـاً عنها أداءً للاعتناء بشـأن الوصية حتى لايهملهـا الورثة، خاصة وأنه لا يوجد لها مُطالب كالدَّين، والجمع بالحرف (أو) للإباحة.

وقولـه: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ جملة اعتراضية لوجوب تنفيذ الوصية.

وقولـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ تأكيد بـ (إن) واسمية الجملة فى إطار أن الله لا يتغـير، ومادام كان فى الأزل عليما حكيمـا فهو لا يزال كذلك. واللفظان عليماً حكيماً؛ على صيغة المبالغة وهى من المحسنات المعنوية.

قـول الله تعـالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ١٢﴾ [سورة النساء – الآية ١٢].

﴿كَلَٰلَةً﴾ مفعـول له، والمعنى: يورث منه لأجـل قرابةٍ كلالة؛ وهو من مات ولم يترك أصلاً أو فرعاً وارثاً.

وحـذف الجار والمجرور فى قولـه: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ بتقدير: وله أخ أو أخت من أم، لدلالة الأنصباء على ذلك؛ فالأخ يستوى مع الأخت – هنا – فى النصيب، بينما يرث الأخ أو الأخت فى آية الكلالة الأخيرة ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

ويقسم الثلث على الأخوة فى آية الكلالة الأولى فى السورة بالتساوى، وليس كذلك فى آية الكلالة الأخيرة؛ يؤيد ذلك قراءة سـعد بن أبى وقاص – شـاذاً – وله أخ أو أخت من

(١) تفسير الكشاف – ١/ ٣٥٣.

أمه[1]. وهذا ما يؤيد الحذف.

قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٧] قصر التوبة على الذين يعملون السوء، ثم يتوبون ويندمون، وحذف الموصوف فى قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ والتقدير: من زمن قريب، لبيان أن المدة التى تقع بين عمل السوء وحضرة الموت قصيرة جداً فى حساب الزمن؛ وذلك للحث على التوبة والإسراع بها قبل الموت، فيحدث الندم مع عدمها، ولات ساعة مندم.

قولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٢٢].

الجملة فعلية لتجدد النهى واستحداثه على الدوام، وقوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ تعريـف للمسـند إليـه بالموصولية لتعظيم شـأنه، وتأكيـد النهى الخاص بـه لكونه من نساء الآباء.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لتأييد الحرمة وتأكيدها من باب تأكيد الشـىء بما يشبه نقيضـه لتعليـق التحليل، إذ المعنـى - والله أعلم - حرِّمتُ عليكم نـكاح زوجات آبائكم إلا ما كان واقعاً منه قبل ذلك فإنه معفوّ عنه، فإن اسـتطعتم أن تعودوا إلى الماضى فافعلوا، وذلك محال. قال صاحب الكشـاف: اسـتثناء ما قد سـلف مما نكح آباؤكم، يعنى؛ إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سـلف فانكحوه، فـلا يحل لكم غيره وذلك غير ممكن. والغرض المبالغـة فى تحريمه، وسـد الطريـق إلى إباحته، كما يعلق بالمحال فـى التأبيد فى نحو قولهم: حتى يَبْيَضَّ القار و ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[2].

وقد ذم الله - تعالى - هذا النكاح بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أى بئس طريقا ذلك النكاح.

وفى ﴿وَسَآءَ﴾ ضمير مبهم يفسـره ما بعده. والمخصوص بالذم محذوف. وذم الطريق مبالغة فى ذم سالكها وكناية عنه.

وجـاء قولـه: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ بعـد قولـه: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ﴾ على طريقة

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٦٤٨.

(٢) تفسير الكشاف. ١/ ٥١٥.

ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٣].

الآيات على طريقة الجمل الإنشائية، وليس المقصود منها – والله أعلم – الإخبار عن التحريم فى الزمن الماضى ولكنه أمر بالتحريم على الدوام.

وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾، حذف المضاف، والتقدير حرم عليكم نكاح أمهاتكم، إذ ليس المراد بالتحريم تحريم الذوات، بل التحريم متعلق بأفعال المكلفين، وقد وقع الحذف لدلالة الفعل عليه، يقول القزوينى: إن الفعل يدل على الحذف لما مرّ من أن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات، والمقصود يرشدك إلى أن التقدير: حرم عليكم نكاح أمهاتكم لأن الغرض من النساء نكاحهن[1].

أو أن الحذف لدلالة ما سبق فى قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ اختبار لتنبُّه السامع وتيقظه لاستقبال أحكام الله.

وقد بنى الفعل (حرم) لما لم يُسَمّ فاعله، لأنه لا شبهة فى أن المحرِّم هو الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ معطوف على ما تقدم ذكره من المحرمات ومنها الأم، فلما تكرر ذكرها مرة ثانية تشوفت النفس إلى بيان الفارق بينها وبين الأولى، فجاء قوله وأمهاتكم الثانية[2] دفعاً لتوهم التكرار.

وأما قوله: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٣] فإنه قد خرج مخرج الغالب بقوله: ﴿ فِي حُجُورِكُم ﴾ إذ الغالب كون البنت مع الأم عند الزوج، وذلك لتقوية علة الحرمة وتشنيع مرتكبها.

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. عبد المتعال الصعيدى –٢/ ١٣١ .
(٢) فى قوله تعالى: {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاتِى أَرْضَعْنَكُمْ}.

وقــول الله تعــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٤٣].

تصدير للكلام بحرف النداء (يا) والتنبيه بـ (ها) اعتناء بشأن الحكم، وحثاً للمخاطب على التنبيه واليقظة لاستقباله.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فاعتناء بشــأن المكلفين، واهتمام بهم بجعل المســند إليه اسم موصول.

وفى قوله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ حذف المضاف. والتقدير – والله أعلم – لا تقربوا موضع الصلاة – أى المسجد – وانتم سكارى أو جنباً إلا عابرى سبيل.

وعلــى تقدير الحــذف فإنه يجوز للجنب العبور فى المســجد. وهناك مــن يقول بعدم الحذف ويكون المعنى – حينئذ – لا تقربوا الصلاة حال كونكم سكارى، أو جنباً، إلا عابر السبيل فإنه يجوز له الصلاة عند توفر الماء له.

وإن كان الشــافعية يرجِّحــون الحذف، ويســتدلون على ذلك بقولــه ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾. فالقــرب والبعــد عندهم لا يصحان على الصلاة على ســبيل الحقيقــة، إنما يصحان على مكانها (المسجد).

وأما جملة ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فهى حالية، تتضمن نهى المؤمنين عن أن يكون الســكر حالهم ووصفهم عند حضور الصلاة، فيجب تركه قبل حلول الوقت.

وقــد فرق عبد القاهر الجرجانى بــين الحال المفردة، والحال الجملة، فقال: إن المفردة تكون وصفا لصاحبها حال تلبســه بالفعل فى (جــاء زيد راكباً)، فالركوب وصف له حال المجىء، وهو تابع له مقدر بقدره. أما (جاء زيد وهو راكب) فإن الركوب وصف ثابت فى نفسه، وقد جاء فى حالة تلبسه به)[1].

وقولــه تعــالى: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ غاية فى النهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة. وقدم الاســتثناء عليه ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ للإيذان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه السورة

(١) دلائل الإعجاز – ص ١٢١.

ليس على الإطلاق، تشويقاً للبيان وروما لزيادة تقريبة فى الأذهان[1].

وقد تقدم فى هذه الآية ذكر المرضى والمسافرين على المحدثين والمجنبين، فى الاستعاضة عن الماء بالتيمم. لغلبة الرخصة عليهم؛ ولكثرتها من بين الأسباب، ثم سلك معهم المحدثين والمجنبين فى سلك واحد، قال الزمخشرى: نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين، وبين المحدثين والمجنبين. والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحدث سبب لوجوب الوضوء، والجنابة سبب لوجوب الغسل؛ لأن الله سبحانه أراد أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء فى التيمم بالتراب، فخص أولاً من بينهم مرضاهم وسفرهم؛ لأنهم المتقدمون فى استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر، وغلبتها على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عمّم على كل من وجب عليه التطهر. وأعوزه الماء؛ لخوف عدو أو سبع، أو عدم آلة استقاء، أو إرهاق فى مكان لا ماء فيه، أو غير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر[2].

قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٦] ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيان لقِسْم من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب فى الآية التى سبقت هذه الآية؛ وهى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٤] وتفصيل بعد إجمال.

وقد حذف المبتدأ فى قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ والتقدير: قوم يحرفون الكلم، وقد وصف بالجملة الفعلية ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ وهم بعض من الذين هادوا.

وأما قوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ فإنها حال من المخاطبين كما قال الزمخشرى: أى اسمع لا سمعت، أو (وأنت غير مسمع) وهو كلام ذو وجهين يحتمل المدح والذم، فالمدح على تقدير: اسمع غير مسمع مكروهاً، والذم على تقدير: اسمع منا مدعوّا عليك بلا سمعت[3].

---

(١) روح المعانى. الألوسى ٥/ ٤٠.

(٢) تفسير الكشاف ١/ ٣٦٣.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٦٧.

وقولـه تعالى – حكاية عنه – (راعنا) إما أن تكون: راعنا سمعك نكلمك، أو أنها كلمة للسب بالعبرانية – كما يقول الألوسى نقلاً عن التيسير – إن راعنا بعينه مما يتسابون به، وهو وصف للرعونة، وقيل إنه يشبه كلمة سب عندهم عبرانية أو سريانية وهى (راعينا)، وقيل بل كانوا يشبعون كسر العين ويعنون – عليهم اللعائن الى يوم الدين – أنه – وحاشاه – ﷺ – بمنزلة خادمهم وراعى غنمهم. وقد كانوا يقولون ذلك مظهرين الاحترام والتوقير، مضمرين ما يستحقون به جهنم وبئس المصير[1].

وهذا لون من ألوان البديع يسمى التوجيه؛ وهو إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين كقول من قال للأعور: «ليت عينيه سواء»[2].

وأما قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ففيه حذف على وجهين؛ إما بتقدير فلا يؤمنون إلا أقوام قليلون كعبد الله بن سلام وأمثاله، أو على تقدير فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً؛ لأنهم آمنوا بموسى وكفروا بمحمد – ﷺ –. والأول أظهر وهذا ما يسمى صيانة احتمال.

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٧] الحديث فى الآية عن اليهود أيضاً. والذين أوتوا نصيبا من الكتاب – فى هذه الآية – هم الذين هادوا فى سابقتها، والضمير فى قوله ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ للذين أوتوا نصيباً من الكتاب.

وقد بدأت الآية بخطاب اليهود، ثم عدلت عن ضمير المخاطب إلى ضمير الغيبة فى قولهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ على طريقة الالتفات الذى عرّفه البيانيون بأنه التعبير عن معنى بإحدى الطرق الثلاث؛ التكلم أوالخطاب أوالغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منهما، بشرط أن يكون التعبير الثانى على خلاف ما يقتضيه الظاهر، ويترقبه السامع وذلك لإيقاظه من الغفلة، وتنشيط عقله بنقله من صيغة إلى أخرى لتجديد نشاطه، وليكون أدعى إلى الإصغاء[3].

وقد نكر لفظ ﴿وُجُوهًا﴾ إما للتهويل، وإما لأن الطمس واقع بهم لا محالة قبل قيام

(١) روح المعانى ٥/ ٤٧.

(٢) هذا الشطر هو الثانى من بيت لبشار الذى قال فيه لمن خاط له ثياب واسمه عمرو وكان أعور:

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء

(٣) انظر فى ذلك: بغية الإيضاح ، ١/ ١٥٢ – ١٥٣.

الساعة بدليل التعبير بضمير الغيبة بعد ذلك فى قوله ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾[1].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى نافذاً محققاً بايقاع أحد الأمرين؛ الطمس أو اللعن.

والجملة اعتراضية للتأكيد، وقد وضع اسم الجلالة موضع الضمير فى قوله ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ بطريق الالتفاف أيضاً لتنبيههم وإيقاظهم من غفلتهم.

وجاء الالتفات؛ لتنبيه السامعين فى موضع آخر من السورة أيضاً فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٦٤] وقد وقع الالتفات فى هذا الآية تعظيماً لشأن الرسول الكريم ﷺ. قال الزمخشرى: ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً بشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان[2].

قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٧٥] التفات فى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ – باعتبار الآية السابقة – ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٧٤]، وقد وقع الالتفات لحث المؤمنين على تحصيل الفضل العظيم الذى ينتظر المجاهدين فى الآخرة، ولنصرة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

وفى قوله ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ حذف للمضاف والتقدير – والله أعلم – وفى سبيل الْمُسْتَضْعَفِينَ، وقد عطف قوله ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ على اسم الله – عز وجل – لبيان أهمية الجهاد فى سبيل الْمُسْتَضْعَفِينَ وسمو مكانته باعتباره جهادًا فى سبيل الله.

وجاء قوله: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ لبيان الفئات المستضعفة فهو تفصيل بعد إجمال.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المقصود بالقرية مكة، ولم

---

(١) الزمخشرى – الكشاف ١/ ٣٧١.

(٢) تفسير الكشاف ١/ ٥٣٨.دار الفكر.

ينسب الظلم إليها تشريفاً لها. ونَسَبَه إلى أهلها لاستحقاقهم إياه ؛ فجملة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ مذكرة لما اسندت إليه القرية وهو ﴿أَهْلُهَا﴾ إذ إن اسم الفاعل واسم المفعول إذا أُجرى على غير ما هو له فتذكيره وتأنيثه على حسب الاسم الظاهر الذى عمل فيه.

والأهل منتسبون للقرية، ومقصودون بالوصف للتخصيص والتمييز.

قول الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٨٥].

تردد الفعل ﴿يَشْفَعْ﴾ ومصدره ﴿شَفَٰعَةً﴾ فى الشرط الأول والثانى، فتحقق بذلك إيقاع موسيقى لقيام التردد على وحدات متساوية من الأصوات الحسنة.

وجاء الطباق بين كلمتى ﴿حَسَنَةً﴾.... ﴿سَيِّئَةً﴾ لبيان نوع الشفاعة فى كلٍ، وعبر بالنصيب[1] فى الشفاعة الحسنة، وبالكفل[2] فى الشفاعة السيئة للتفنن.

وقد تقدم ﴿نَصِيبٌ﴾ على ﴿كِفْلٌ﴾ إشارة إلى أن الحسنة يضاعف ثوابها، ويجازى صاحب السيئة بالمثل كما فى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام – الآية ١٦٠].

وقد قامت الآية على وحدتين أساسيتين﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ و ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وحققت المقابلة اللطيفة بينهما دقة فى الأداء ونظماً رائعاً؛ إذ المقابلة – كما يقول عنها السكاكى – هى أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما، ثم إذا شرطت شرطاً هنا شرطت هناك ضده[3]، وهى لون من البديع يضفى على الكلام طلاوة وجمالاً.

قوله الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٨٧].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر وهى – باعتبار الآيات السابقة – جملة اعتراضية لوجوب تنفيذ ما قبلها من أحكام.

---

(١) النصيب – هنا – الحظ الوافر.

(٢) الكفل: المِثْل المساوى.

(٣) مفتاح العلوم ص ٤٣٤.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جواب لقسم محذوف تقديره: والله ليجمعكم، والفعل [لَيَجْمَعَنَّكُمْ] للإشعار بأن الله ـ تعالى ـ جامع الأولين والآخرين، وقد أكد هذا الجمع بالقسم ونون التوكيد.

وأما حرف الجر (إلى) فإنه بمعنى (في) والتقدير: في يوم القيامة.

والقيامة بمعنى القيام، ودخلت التاء للمبالغة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام إنكاري، بمعنى أنه لا يوجد من هو أصدق منه – تعالى – في الحديث. وزيادة في تأكيد الجمع يوم القيامة.

قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٩٠] في قوله [فَلَقَٰتَلُوكُمْ] زيادة اللام للمحاذاة، إذ إن اللام جواب لو في قوله [لَسَلَّطَهُمْ]؛ والمعنى: لو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم، لكن لا يتحقق النظم البديع والجرس الموسيقي العذب في الآية كما تحقق بإثبات اللام الثانية.

والمحاذاة؛ أن يُجْعَل كلام بحذاء كلام فيُؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين[1].

قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٩٥] الآية؛ تنفي المساواة بين المجاهدين والقاعدين، وترفع درجات المجاهدين، ولذا فإن لفظ ﴿ٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ تردد في الآية ثلاث مرات، وقد وقع التفضيل له من الله في مرتين منها.

وجاء لفظ الجلالة في أربعة مواضع، وقد وقع منه التفضيل للمجاهدين في مرتين منها؛ لبيان سمو منزلتهم.

ويلاحظ أن المجاهدين قد فضلوا في الأولى بقوله ﴿دَرَجَةً﴾ مُنَكَّرة حتى لا يعرف أحد مقدارها إلا المفضِّل – تعالى – وذلك للحث على الجهاد، والإسراع إليه بالمال والنفس. وقد نصبت ﴿دَرَجَةً﴾ على المصدر؛ لأنها تضمنت التفضيل، فهي بمعنى المنزلة والمرتبة تكون في الترقي والفضل، فوقعت موقع المصدر كأنه قيل: (فضلهم تفضيلة)[2].

---

(١) ابن فارس – الصاحبي /٣٨٤.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للألوسي ٥/ ١٢٢.

وأما قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فإنها جملة اعتراضية؛ لتدارك ما قد يوهمه تفضيل المجاهدين من حرمان القاعدين، وإشارة من الله تعالى إلى قبول عذر القاعدين مع رغبتهم الصادقة في الجهاد، ولبيان أن الجزاء يكون على قدر النية.

وأما قوله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ففيه تقديم المال على النفس لبيان منزلة المال ومكانته في القلوب.

قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١١٢] جملتا ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ و ﴿يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ عطفت إحداهما على الأخرى بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ ومن مجموعهما كان الشرط الذي جوابه ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وأما عطف [إِثْمًا] على ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾ بحرف العطف ﴿أَوْ﴾؛ فلبيان أن الأولى غير الثانية، ثم إنهما مجتمعتين يؤديان بصاحبهما إلى البهتان والإثم المبين.

وفي كتابه دلائل الإعجاز تعرض الإمام عبد القاهر لدراسة هذه الآية فقال: (الشرط - كما لايخفى - في مجموع الجملتين، لا في كل واحدة منهما على الانفراد، ولا في واحدة دون الأخرى، لأنا إن قلنا إنه في كل واحدة منهما على الانفراد، جعلناهما شرطين، وإذا جعلناهما شرطين، اقتضتا جزاءين، وليس معنا إلا جزاء واحد، وإن قلنا إنه في واحدة منهما دون الأخرى لزم منه إشراك ما ليس بشرط في الجزم بالشرط. وذلك ما لا يخفى فساده.

ثم إنا نعلم من طريق المعنى أن الجزاء الذي هو احتمال البهتان والإثم المبين، أمر يتعلق إيجابه بمجموع ما حصل في الجملتين، فليس هولاكتساب الخطيئة على الانفراد، ولا لرمي البريء بالخطيئة أو الإثم على الإطلاق، بل لرمي الإنسان البريء بخطيئة أو إثم كان من الرامي، وكذلك الحكم أبداً[1].

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٤٢].

تأكيد لخداع المنافقين بـ ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة، والخبر جملة فعلية ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ لفائدة؛ وهي أنهم على هذه الشاكلة من النفاق والخداع في كل زمان.

---

(١) دلائل الإعجاز - ص ١٦٥.

وأما جملة ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فإنها اسمية، لإفادة دوام خداع الله ـ تعالى ـ لهم، والله لا يخادع ولكن المعنى أنه – تعالى – يجازيهم بخداعهم. فكأن خداعهم المتجدد مقابَل بعقاب مستمر من الله. وهذا لون من ألوان البديع يسمى المشاكلة.

وقد سمى الله جزاءه للمنافقين مخادعة لمشاكلة خداعهم ونفاقهم؛ فالجزاء من جنس العمل.

وهذه الجملة – أيضاً – معطوفة على ما قبلها كما يقول الإمام عبد القاهر، لأن الأول من الكلامين فيها كالثانى فى أنه خبر من الله تعالى وليس بحكاية[1].

قول الله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء – ١٥٧] الضمير فى ﴿قَتَلُوهُ﴾ يعود إلى عيسى – عليه السلام – أى أنهم ليسوا متيقنين من قتله. بينما يرى ابن قتيبة عوده إلى (العلم) أى (وما قتلوا العلم يقينا)، كما تقول: قتلت الكتب بحثاً، إذا تبالَغ بحثُك فيها، أى أن العلم لم يتحققوه ويستيقنوه. وأصل ذلك أن القتل للشىء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة، فلم يكن علمهم بقتل المسيح علماً أحيط به وإنما كان ظنا[2].

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة النساء – ١٧١] ذهب بعض العلماء إلى تقدير حذف المبتدأ فى هذه الآية بتقدير: وَلَا تَقُولُوا آلهتنا ثَلَاثَةٌ، وهذا التقدير وإن كان ينفى كون الآلهة ثلاثة، إلا أنه يسلم بتعدد الآلهة؛ إذ النفى لاينصبّ على معنى المبتدأ على المعنى المستفاد من الخبر. وفى ذلك يقول عبد القاهر: ذهبوا فى رفع ثلاثة إلى أنها خبر مبتدأ محذوف وقالوا: إن التقدير ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وليس ذلك بمستقيم؛ وذلك أنا إذا قلنا: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة كان ذلك – والعياذ بالله – شبه الإثبات أن هاهنا آلهة، من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفى المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ، ولا تنفى معنى المبتدأ؛ فإذا قلت: (ما زيد منطلقا) كنت نفيت الانطلاق الذى هو معنى الخبر عن زيد، ولم تنف معنى زيد ولم توجب عدمه. وإذا كان ذلك، فإذا قلنا: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة، ولم ننف أن تكون آلهة – جل الله تعالى عن الشريك والنظير –.

ويرى الإمام أن (ثلاثة) صفة لمبتدأ محذوف، والتقدير: ولا تقولوا: لنا آلهة ثلاثة، أو فى الوجود آلهة ثلاثة، ثم حذف الخبر الذى هو (لنا) أو (فى الوجود) كما حذف من

(١) المصدر نفسه – ص ١٥٦.

(٢) تأويل مشكل القرآن / ص ١٥٣ – ١٥٣.

أختٌ فلها نِصفُ ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيءٍ عليمٌ (١٧٦) ﴾ [سورة النساء – الآية ١٧٦].

فـي قولـه تعـالى: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم﴾...[حـذف للجـار والمجرور لدلالة ما تقدم عليه، والتقدير: يسـتفتونك فى الكلالة، وقد سـاغ الحذف لعدم تكرار ذكر ﴿الكلالة﴾ الذى لا يؤدى ما أداه الحذف من جمال وروعة فى النظم، ودقة وإحكام فى الأداء، ووقوع إيقاع موسيقى فى الآية.

وأمـا قوله: ﴿إن امرؤٌ هلك ليس له ولدٌ﴾ فإنه حذف للمعطوف واكتفاء بذكر المعطوف عليـه، للعلم بالمعطوف عن طريق توريث الأخـت. والتقدير – والله أعلم –: ليس له ولد ولا والـد، بدلالة النصف للأخت، وهى لا تسـتحق إلا فـى حالة عدم وجود الأب. وهذا النـوع من الحذف يسـمى الاكتفاء كما يقول عنه السـيوطى: وهـو أن يقتضى المقام ذكر شـيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الأخر لنكتة، ويختص دائماً بالارتباط العطفى[(٢)].

وأمـا قولـه ﴿أن تضلوا﴾ مفعول به لـ﴿يبين﴾ على صيغة المصـدر المؤول والتقدير: كراهة أن تضلوا. وقد قال الألوسـى بصدد شرح هذه الآية: إنه من حسن الختام والالتفات إلى أول السـورة ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ فإنه – سـبحانه – أمرهـم بالتقوى، وبيّن لهم ما كانـوا عليـه فى الجاهلية. ولـما تم تفصيله قال عز وجل لهم: إنـى بينت لكم ضلالكم فاتقونى كما أمرتكم[٣].

---

(١) انظر فى ذلك كله: دلائل الإعجاز – ص ٢٤٤.
(٢) الإتقان فى علوم القرآن ٢/ ٧٩.
(٣) روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى ٦/ ٤٥.

وحسن ختام السورة بهذه الآية – أيضاً – لما فيها من أحكام الموت الذى هو آخر كل حى، ولأنها آخر مانزل من أحكام[1].

❑❑❑

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٣٧.

الفصل الثالث

الإعجاز البيانى

الصورة الفنية فى سورة النساء:

الصورة الفنية فى سورة النساء تتمثل فى التشبيه والاستعارة والكناية التى لا يراد بها المعنى الأصلى الذى وضعت له، وإن كانت الكناية عامة أبلغ من التصريح لإثبات المعنى لما ثبت له كما يقول الإمام عبدالقادر الجرجانى: (فإذا جعلوا للكناية مزية على التصريح لم يجعلوا تلك المزية فى المعنى المكنى عنه، ولكن فى إثباته للذى ثبت له، وذلك أنا نعلم أن المعانى التى يقصد الخبر بها لا تتغير فى أنفسها بأن يكنى عنها بمعان سواها، ويترك أن تذكر الألفاظ التى هى لها فى اللغة، ومن هذا الذى يشك أن معنى طول القامة وكثرة القِرى لا يتغيران بأن يكنى عنهما بطول النجاد، وكثرة رماد القدر، وتقدير التغيير فيهما يؤدى إلى أن لا تكون الكناية عنهما، ولكن من غيرهما)[1].

ويتشعب حديث الكناية إلى التلويح والتعريض والرمز والإيماء.

تلك هى الصورة التى أعنيها فى هذا الفصل والتى تشمل أنواع المجاز بصورة جزئية تتمثل فى تناول موضوعات علم البيان وتطبيقها على السورة لإظهار معانيها وتوضيحها ذلك لأنها تعدل عن اللفظ الظاهر إلى ما هو أبلغ، فيقع فى النفس موقعاً حسناً.

يقول الإمام عبدالقادر الجرجانى: (اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغى أوجب الفضل والمزية[2]. ومن ثم فإن الصورة التى أعنيها فى هذا الفصل

---

(١) دلائل الإعجاز /٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه /٢٧٣.

تختلف عن الصورة التي عناها المرحوم سيد قطب[1]، والتي استخدم لها اللون والحركة والإيقاع والوصف والحوار والموسيقى، وجعل العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان من الأشياء التي تتملى صورته، كما أنه انتزعها من عالم الأحياء لا ألوان مجردة، وخطوط جامدة، وجعله تصويراً تقاس فيه الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانيات؛ فالمعاني - عنده - تُرسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة[2].

قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سورة النساء - الآية ٢].

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ لفظ لا يراد به معناه الحقيقي، فاليتيم من فقد أباه ولم يبلغ سن الرشد، بدليل قوله ﷺ: «...لا يُتْم بعد الحلم»[3]. والآية تأمر الأوصياء بإيتاء أموال من كانوا يتامى وتمكنهم منها للتصرف فيها كيفما يختارون؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ ۝٦﴾ [سورة النساء - الآية ٦] يكون المراد من (اليتامى) في الآية؛ البالغين الراشدين الذين كانوا يتامى. وإطلاق لفظ ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ عليهم مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان. ويكون اللفظ - بذلك - قد استعمل في غير معناه الحقيقي لملاحظة علاقة اعتبار ما كان مع وجود لفظ ﴿وَءَاتُوا۟﴾ كقرينة تدل على عدم إرادة المعنى الأصلي.

وسُمِّيَ المجاز مرسلًا، لأنه أطلق عن التقييد بعلاقة واحدة، كما في الاستعارة التي ليس لها إلا علاقة المشابهة.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [سورة النساء - الآية ١٠].

لفظ ﴿نَارًا﴾ - في الآية - لا يراد به معناه الحقيقي، بدليل قوله تعالى: «يأكلون في بطونهم...» فالنار لا تؤكل، وإنما المراد به المال الحرام (وهو مال اليتامى الذي أكله أوصياؤهم) والنار مسببة عنه؛ فقد روى أبو برزة الأسلمي أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الله يوم القيامة قوما من قبورهم تأجج أفواههم نارا، قيل من هم يارسول الله؟ قال:

---

(١) في كتابه التصوير الفني في القرآن الكريم.

(٢) انظر المصدر السابق /٣٥.

(٣) المحلى لابن حزم ٤٩/٨.

ألم تـر أن الله يقـول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1]

فاللفـظ (ناراً) مجاز مرسـل علاقته السـببية، بينما يرى الجاحـظ أن الآية – موضع الدراسـة بها مجازان، الأول: فى قولـه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ اقال: إنها من باب المجاز والتشـبيه على شاكلة ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [سورة المائدة – الآية ٤٢] وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهماً واحد فى سبيل الأكل. وقد قال الله – عز وجل – ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ وهذا مجاز آخر[2].

والمجـاز فى الآية مبالغة فى زجرهـم عن أكل أموال اليتامى، وتهويل الأمر بأن جعل المأكول كأنه نار فى الحقيقة.

قول الله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة النساء – الآيـة ٢١] (أفضى بعضكم إلى بعض) كناية عن الجماع، فالأصل فى كلمة (أفضى) أنها من الفضاء، وأفضى فلان إلى فلانة، أى صار فى فرجتها وفضائها، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بالجمـاع. وفـى هذا الصدد يقول ابن عباس: (إن الإفضـاء – هنا – كناية عن الجماع فالله كريم يكنى بما يشاء[3].

وقـد جـاء الإفضاء فى اللغـة بمعنى المخالطة، ويقال للشـىء المختلـط: فضا، وعليه قول الشاعر:

فقلت لها يا عمتـى لكِ ناقتـى وتمر فضا فى عيبتـى[4] وزبيب[5]

مما سبق يتبين أن (أفضى) – بين الرجل والمرأة – لا يتحقق إلا بالجماع، وعليه فإن اللفـظ أطلـق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلى وهو ما يسـمى بـ الكناية.

---

(١) الكامل فى الضعفاء: ١٣٤/٤.

(٢) الحيوان للجاحظ ٥/٣٥.

(٣) تفسير القرطبى ١٦٧٢/٣.

(٤) العيبة: زبيل من أدم ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين.عن المعجم الوسيط مادة (ع ى ب)

(٥) تفسير القرطبى ١٦٧٢/٣.

وقد وقعت الكناية – فى الآية – موقعاً حسناً حيث عبر عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعه.

قول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٣].

ليست الأعيان مورداً للتحليل والتحريم، ولكن التكليف يتعلق بالأمر والنهى وهما مختصان بالأفعال لا الذوات، ولكن الذات محل للأفعال. قال ابن العربى: (إن التحريم ليس بصفات للأعيان، وإن الأعيان ليس مورداً للتحليل والتحريم ولا مصدراً، وإنما يتعلق التكليف بالأمر والنهى بأفعال المكلفين من حركة وسكون، ولكن الأعيان لما كانت مورداً للأفعال أضيف الأمر والنهى والحكم إليها، وعلق بها مجازاً بديعاً على معنى الكناية بالمحل عن الفعل الذى يحل به من باب اسم التسبيب فى المجان[1].

قول الله تعالى من ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٣].

﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ كناية عن الجماع كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب. قال ابن العربى: ودليل ذلك ما قاله سائر العلماء والصحابة: إن العقد على البنت يُحَرِّم الأم، ولا تحرم البنت حتى يدخل بالأم[2].

والله كريم يكنى بما يشاء، وقد عبر – بهذه الآية – عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعه.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٥].

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ استعارة تصريحية، فأجورهن – فى الآية – بمعنى مهورهن، وقد شبه المهر بالأجر وحذف المشبه، وصرح بالمشبه به على طريقة الاستعارة التصريحية.

وقد حسن تشبيه المهر بالأجر – فى هذا الموضع – لملاحظة قوامة الرجل على المرأة، وكأن هذا الأجر على تحملها قوامة الرجل عليها. وكان التشبيه – قبل الاستعارة – وافياً

(١) أحكام القرآن ١/٣٧١.

(٢) أحكام القرآن ١/١٧٦.

بإفادة الغرض؛ إذ بالمهر يملك الزوج السلطة على المرأة وينزل منها منزلة المالك مع المملوك فيما بذل من العوض فتكون منفعتها بذلك له[1].

ومما تجدر ملاحظته أن الله - تعالى - سمى المهر فى أول السورة نِحلة، بمعنى عطية دون مقابل لملاحظة استمتاع كل من الرجل والمرأة بالآخر ويكون المهر - والحالة هذه - تكريماً للمرأة من الله تعالى.

قال أصحاب الشافعي: النكاح عقد معاوضة، انعقد بين الزوجين، فكل واحد منهما بَدَلٌ عن صاحبه، ومنفعة كل واحد منهما بصاحبه عوض عن منفعة الآخر، والصداق زيادة فرضه الله تعالى على الزوج لما جعل له فى النكاح من الدرجة، ولأجل خروجه عن رسم العوضية جاز إخلاء النكاح عنه والسكوت عن ذكره، ثم يفرض بعد ذلك بالقول، أو يجب بالوط[2].

قول الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [سورة النساء - الآية ٣٢] فى قوله (مما اكتسبوا) تشبيه؛ شبه استحقاقهم للإرث، وتملكهم له بالاكتساب، مع إيضاح المعنى فى كلٍ، واستعير الاكتساب لأحقيتهم فى تملك المال الموروث، ثم اشتق من الاكتساب بمعنى أحقيتهم فى الإرث(اكتسبوا) بمعنى: استحقوا، على طريقة الاستعارة التبعية.

وقد سميت الاستعارة - بهذه الطريقة - تبعية؛ لأنها تجرى فى الأفعال والأسماء المشتقة تبعاً لجريانها فى مصادرها؛ فقوله (مما اكتسبوا) جرت فى الفعل (اكتسب) تبعاً لجريانها فى المصدر (اكتساب)، والفعل مشتق من المصدر، فكل تصرف يجرى فى المصدر، يجرى نظيره فى الفعل تبعاً له.

قول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ۚ﴾ [سورة النساء - الآية ٤٣].

﴿الْغَائِطِ﴾: المطمئن من الأرض، وقد كنّى الله - تعالى - به عن قضاء الحاجة لأنهم كانوا إذا أرادوا قضاءها أتوا الغائط رغبةً فى التستر، فكنى به عما يخرج من السبيلين، وهذا باب من التعبير عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعه.

---

(١) أحكام القرآن ١/٣١٧.

(٢) المصدر نفسه ١/٣١٦ - ٣١٧.

عن الجماع[2].

وابن عمر يفرق بين اللمس والملامسة، فالثانية - عنده - للجماع، والأولى لسائر الجسد[3].

وابن عباس يقول: إن الله تعالى حييٌ كريم يعف؛ كنى باللمس عن الجماع وهذا الرأى - فى نظرى - أصح الأقوال التى قيلت فيه لتواتر القراءات بهما، ولوجوب الغسل أو التيمم باللمس أو الملامسة[4].

قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٣٦] فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ تعريض باليهود وذم الكبر عندهم الذى يؤدى إلى احتقار الناس...

والتعريض - لغة خلاف التصريح، واصطلاحاً هو أن يطلق الكلام ويشار به إلى معنى يفهم من السياق وقد قسمه السكاكى قسمين: فتارة يكون من باب الكناية، وتارة أخرى من المجاز، ومثل ذلك بقوله: فإذا قلت آذيتنى فستعرف وأردت المخاطب ومع المخاطب إنساناً آخر معتمداً على قرائن الأحوال كان على سبيل الكناية، وإن لم ترد إلا المخاطب كان على سبيل المجاز[5].

ويجعل السكاكى التعريض والتلويح والرمز والإيماء بالإشارة كلها من فروع الكناية

---

(١) المصحف المفسر. محمد فريد وجدى (تفسير سورة النساء) /١٠٧.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٤٤٣.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٤٤٣.

(٤) تفسير القرطبى ٣/ ١٧٩٤ - ١٧٩٥.

(٥) مفتاح العلوم /٤١١.

بتفـاوت بـين درجات التعبير بها فيقول: متى كانت الكناية عُرْضِيّة.. كان إطلاقى اسـم التعريض عليها مناسباً، وإذا لم تكن كذلك نُظِر، فإذا كانت ذات مسافة بينها وبين المكنى عنها متباعدة لتوسـط لوازم كما فى (كثير الرماد) وأشـباهه كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت ذات مسافة قريبة من نوع الخفاء كنحو (عريض القفا) أو (عريض الوسـادة) كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأن الرمز هو: أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية.. وإن كانت لا مع نوع الخفاء كقول أبى تمام:

أبَيْنَ فما يَزُرْن سـوى كريـم وحسبك أن يزرن أبـا سـعيد

فإنه فى إفادة: أن أبا سـعيد كريم غير خاف، كان إطلاق اسـم الإيماء والإشارة عليها مناسباً[1].

قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [سـورة النساء – الآية ٥٣] تعريض فى هذه الآية بشـدة بخل اليهود وقلة جودهم بأقل الأشياء وأبسطها وهو النقير بمعنى النكتة التى تكون فى ظهر النواة.

قـول الله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٤].

(يشـترون الضلالة) أى يختارون الضلالة، وقد شـبه الاختيار بالاشتراء، ثم استعير له لفظ الاشتراء، ثم اشتق منه ﴿يَشْتَرُونَ﴾ بمعنى يختارون على طريق الاستعارة التبعية.

ومن يشتر شيئاً فهو أحرص عليه. والآية فى علماء اليهود الذين كانوا يزيِّفون الحقائق للعامة، ويسـدون عليهم منابع الهدى من رسـالة محمد ﷺ، ولذا فإن الله تعالى وصفهم بالإضلال فى قوله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٤] فهم ضالون لأنفسهم ومضللون لغيرهم.

قـول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٤٦] اللىُّ: هو الفتل بالحبل، وأصله التواء طرفى الحبل وعدم استقامتهما لفائدة تقويته. وقد شبه كلام اليهود الذين قصدوا به غير ظاهره باللى بجامع عدم الاسـتقامة فى كلٍ، ثم اسـتعير اللى

(١) المصدرالسابق. ٤١١ – ٤١٢. وراجع بغية الإيضاح – عبد المتعال الصعيدى ١٨٦/٣.

للكلام الذى قُصد به غير ظاهره على طريقة الاستعارة التصريحية؛ حيث إنه صرح بالمشبه به. ولما كان المشبه به مصدراً (ليأ) كانت الاستعارة تصريحية تبعية.

قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [سورة النساء – الآية ٥٤].

ورُوى عن ابن عباس أن المقصود بـ (الناس) – فى هذه الآية – سيدنا محمد ﷺ إذ حسده اليهود على النبوة التى كرمه الله بها[1].

فكلمة الناس – إذاً – فى الآية مجاز مرسل علاقته الكلية، من باب تسمية الخاص باسم العام، إشارة إلى أنه جمعت فيه كماليات الأولين والآخرين – ﷺ –.

قول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٦٥] فى قوله تعالى ﴿شَجَرَ﴾ استعارة تصريحية تبعية، حيث شبه التنازع الذى يدخل به بعض الكلام على بعض بما اشتبك وتضايق من الشجر وكأن اللفظ المستعار ﴿شَجَرَ﴾ استعارة للمعقول بالمحسوس لتقوية المعنى فى نفس السامع وتوضيحه وإبرازه.

جاء فى دلائل الإعجاز: (واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء ازدادت الاستعارة حسناً، حتى أنك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد أُلِّفَ تأليفاً إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تعافه النفس ويلفظه السمع)[2].

قول الله تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٩٢].

﴿رَقَبَةٍ﴾ مجاز مرسل، علاقته الجزئية، فقد أطلق البعض وأراد الكل، والمعنى عتق مملوك، وقد جرى ذكر ﴿رَقَبَةٍ﴾ فى الآية دون أعضاء الجسم؛ لأنها الموضع الذى يُضرب فيه الإنسان فيقتل غالباً.

قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴿٩٤﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٩٤].

الضرب – فى هذه الآية – بمعنى السعى، وقد شبه الضرب بالسعى بجامع حدوث

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٨٢١.

(٢) دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانى /٢٨٤ – ٢٨٥.

المشقة فى كل، واستعار الضرب للسعي، ثم اشتق منه الفعل (ضربتم) على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية لفائدة وهى تقوية المعنى وتوكيده.

وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: دين الله، وقد شبه دين الله بالسبيل؛ أى الطريق، بجامع الاستقامة والهداية فى كل، وصرح بالمشبه به وهو ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على طريق الاستعارة التصريحية.

قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢٥].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ أى: أسلم وجهته وقصده، وقد شبه الوجهة والقصد بالوجه بجامع الاتجاه المستقيم فى كل منهما، واختار الوجه لأنه أشرف شىء فى الإنسان، ويجمع أشرف الأعضاء كالأذن للسمع، والعين للإبصار، والجبهة للسجود، ثم استعار الوجه للقصد والجهة على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية، لعدم بنائها على تشبيه تابع لتشبيه آخر معتبر أولاً.

قول الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢٨].

شبه الملازمة بالإحضار، واستعار إحضار الشح للازمته، ثم اشتق من المصدر (إحضار) الفعل (أحضر) المبنى للمجهول على طريقة الاستعارة التبعية.

(ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه يعنى أنها مطبوعة عليه. والغرض: أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح أن يقسم له وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها)[1].

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٤٢].

الله - تعالى - لا يخادع، ولكنه شبه الجزاء الذى يجازى به المنافقين على خداعهم مخادعة لبيان أنهم سيلقون جزاءً من جنس عملهم، ثم استعير لفظ المخادعة للجزاء واشتق منها اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته، وكنت أخدع منه، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

قال الزمخشرى: وقد قيل إن المنافقين يُعْطَوْنَ على الصراط نوراً كما يُعطى المؤمنون

(١) تفسير الكشاف ١/ ٣٨٩.

فيمضون بنورهم، ثم يطفأ نورهم، ويبقى نور المؤمنين فينادون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحديد – الآية ١٣][1].

قول الله تعالى ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١٥٧] هذه الآية حكاية عن اليهود بقولهم: قتلنا المسيح عيسى بن مريم (رسول الله) وهم لم يؤمنوا برسالته، بدليل عدم تصديقهم بها، وإنما قالوا بذلك تهكماً وسخرية منه(عليه السلام) وتعريضاً به. يقول الزمخشري: (ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية، رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه به، وتعظيماً له)[2].

قول الله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١٦٢] في قوله (الراسخون) استعارة تصريحية تبعية. فقد شبه الثبوت في العلم والتمكن فيه بالرسوخ، واستعار الرسوخ للتثبت والتمكن واشتق من فعل الرسوخ (رسخ) واسم الفاعل (راسخ). والراسخون في العلم هم الذين آمنوا من اليهود كعبد الله ابن سلام وأمثاله.

❑❑❑

(١) الزمخشري – تفسير الكشاف – ١/ ٣٩٢.

(٢) نفس المصدر ١/٣٩٦.

الخاتمـــة

وبعد...

فهذه دراســة متواضعة لسورة من سور القرآن تشرفت بالبحث فيها وعمل دراسة حول معانيها السامية، وما هذه الدراسة إلا غيض من فيض، وقطرة من بحر خضم حافل بالمعانى الســامية، والأحكام العظيمة التى لو طبقها مجتمع لحلّق فى آفاق المجد وارتقى إلى مرتبة السمو والرفعة.

وكانت دراستى للســورة تشمل جوانب متعددة لإلقاء الضوء عليها وتوسيع دائرة النفع بها؛ فكان الباب الأول يشــتمل على تاريخ نزول الســورة والقراءات المحتملة لها وتجميع الموضوعات المتعددة التى تناولتها السورة وهو ما يسمى بالدراسة الموضوعية.

وكان اختيار الدراسة فى تاريخ النزول لأنه لون من ألوان الدراسات لم أجد له اهتماماً بالغاً كبقية العلوم القرآنية، وليس له سجل معروف إلا ما كان منثوراً فى مصنفات أسباب النزول، والتى يشير فيها أصحابها إلى تاريخ نزول بعض الآيات؛ كما هو الشأن فى لباب النقول للســيوطى. علماً بأنها دراسة تحظى بأهمية بالغة ونفع زائد؛ ذلك أن معرفة تاريخ النزول تســاعد على معرفة الناسخ والمنســوخ من آيات الأحكام؛ فإذا عُرف آخر حكم نزل فى أمر من الأمور، لكان هذا الحكم ناســخاً لمــا قبله؛ كقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [ســورة النساء – الآية ١٥] إذا قورن بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة النور – الآية ٢] لأوهــم البعض أنهما حكمان مختلفان على أمر واحد، ولا يزول الوهم إلا إذا عُرف أن الآية الأولى التى فى النســاء، أســبق نزولاً من آية النور، وكانت تمهيداً لها وتدرجاً لما جاء فى السورة من أحكام.

ودراستى لتاريخ نزول آيات سورة النساء كانت أساساً لمعرفة الفترة الزمنية التى نزلت فيها السورة.

وبعد أن تعرفت إلى تاريخ نزول بعض آيات الســورة من خلال معرفة ســبب نزول كل

آية من هذه الآيات، ومقارنته تاريخياً بحادثته من كتب السير والتاريخ، تبين لى أن سورة النساء، بدأ نزولها منذ العام الأول الهجري، وظلت مفتوحة طوال العهد المدنى حتى نهايته تقريباً بنزول آية الكلالة الأخيرة، والتى أجمعت كل الآراء أنها آخر ما نزل من الأحكام، إن لم تكن آخر آية نزلت من القرآن على الإطلاق[1].

وبهذا أخالف المرحوم سيد قطب[2] فيما ذهب إليه من أن آيات هذه السورة امتد نزولها من بعد غزوة أحد فى السنة الثالثة للهجرة إلى ما بعد السنة الثامنة. ولا أدرى كيف استطاع أن يجزم بهذا الرأى وهناك آيات من السورة صريحة النزول فى غزوة بدر مثلاً، والتى كانت فى السنة الثانية للهجرة، وكيف أهمل تاريخ نزول آية الكلالة فى آخر السورة والتى كانت آخر ما نزل من آيات الأحكام.

وأختلف مع الأستاذ عبدالمتعال الصعيدى الذى يرى أن نزول السورة امتد من السنة السادسة للهجرة إلى السنة التاسعة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك[3].

وأستطيع القول أن سورة النساء كلها مدنية، خلافاً لمن قال إنها مكية كالنحاس؛ – مثلاً – الذى يرى أنها كذلك لاحتوائها على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٥٨] الآية التى نزلت فى جوف الكعبة[4].

وأتفق مع العالم الجليل (القاسمى) الذى يقول: لا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة تنزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية خصوصاً – والأرجح – أن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى[5].

وقد صرحت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – بقولها: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ. ومن المعروف أن الرسول ﷺ بنى بها وهو بالمدينة.

وأما دراسة ما جاء فى السورة من أوجه القراءات المختلفة من خلافات نحوية فلم تكن إلا لضبط قراءة السورة واستنباط أحكام أخرى باختلاف القراءة بالآية الواحدة، ومن يوم أن نشأ علم القراءات فى عهد رسول الله ﷺ وهو يؤدى دوراً مرموقاً، ويحتل مكانة سامية بين علوم القرآن الكريم.

---

(١) انظر متن البخارى بحاشية السندى ٣/١٢٣، والإتقان للسيوطى١٠٢.

(٢) فى كتابه: فى ظلال القرآن

(٣) فى كتابه النظم الفنى فى القرآن – ٧٦.

(٤) راجع فى ذلك: محاسن التأويل للقاسمى ٥/ ١٠٩٢.

(٥) المصدر نفسه ونفس الصفحة. والقرطبى ٣/ ١٩٤٧.

ودراستى – فى هذا المجال – قامت على معرفة القراءات التى وردت حول الآيات موضوع الدراسة من كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزري، والذى يعد من أشهر الكتب فى هذا المجال، ومقارنة كل قراءة بأخرى فى الآية الواحدة، واستخلاص ما أحدثه اختلاف القراءة من معان جديدة، وذلك بالاسترشاد ببعض آراء العلماء ودراستهم لنفس الآية كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٩] فمن قرأ (كُرهاً) بضم الكاف فعلى معنى التحذير من أخذ النساء على سبيل الإرث وهن كارهات لذلك. ومن قرأ بفتح الكاف، فعلى معنى التحذير من أخذهن على سبيل الإرث وقد أكرهتموهن على ذلك.

وكقراءة (والمحصنات) و (محصن) و (محصنين) و (أحصن) قرئت هذه الحروف جميعها بفتح الصاد وكسرها إلا الحرف الأول (والمحصنات) فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٤] ومن خلال ذلك تبين أن المراد باللفظ ذوات الأزواج، إذ لم يقرأ أحد بالكسر، ولو قرئت بالكسر، لاحتملت معان متعددة وهي: حرمة الزواج بالمسلمة، أو بالحرة، أو بزوجة الغير، حيث إن الإحصان يحتمل هذه المعانى كلها وهذا ما يناقض الواقع.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٥] فقد قرئت (أحصِن) بفتح الصاد وكسرها بما أوجد اختلافات فى وجهات نظر العلماء حول مفهوم الإحصان.

وقراءة (لمستم ولامستم) فى قوله تعالى: ﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٤٣] فاللمس إدراك بظاهر البشرة كالمسّ[1] والملامسة أكثر ما جاءت من اثنين[2] وعلى هذا فإن بعض الفقهاء قد علقوا أحكاماً مختلفة حول مفهوم هذه القراءة فمنهم من أخذ بظاهر اللفظ فقال: إن لمس المرأة ينقض الوضوء، ومنهم من جعل اللمس والملامسة، كناية عن الجماع. وأما من لمس بمعنى أدراك ظاهر البشرة فقط، فلا شيء عليه؛ واحتجوا بما أُثِرَ عن النبى ﷺ أنه قبّل بعض نسائه ولم يتوضأ[3].

(١) مفردات الراغب/ ٤٥٤.

(٢) لسان العرب مادة (ل م س).

(٣) انظر عمدة التفسير ١٨٥/٣.

ذلك هو علم القراءات، وتلك أهميته ومكانته؛ إعمال للعقل، وزيادة إدراك لمعانى كتاب الله العظيم، واختلاف فى الأحكام بما ييسر على المسلمين أمر دينهم.

والفصل الثالث من الباب الأول كان تجميعاً للموضوعات الرئيسية التى تناولتها سورة النساء وهو ما يُعرف بـ (الدراسة الموضوعية).

وقد نشأ هذا العلم منذ زمن بعيد حينما استطاع العلماء الأوائل بما كان لديهم من قدرة فائقة على الفهم والتجميع، أن يستنبطوا الأصول والأحكام من الآيات القرآنية؛ ليكوِّنوا مفاهيمهم الفقهية المعروفة، ولم تكن مصنفات الفقه فحسب الثمرة الوحيدة لهذه الدراسة، بل إن علوماً متعددة كالأخلاق والعقيدة وغيرها كانت ثمارها.

وفى العصر الحديث قام المستشرق الفرنسى (جول لابوم)[1] بمحاولة من هذا النوع؛ حيث جمع كل الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد ووضعها تحت عنوانها ولم يتعرض لشرحها. ويلاحظ أن هذا التبويب تعوزه الدقة والإحكام فى اختيار بعض الآيات لموضوعها الحقيقى.

كما حذا الدكتور أحمد إبراهيم مهنا[2] هذا الحذو؛ على خلاف ملحوظ بينهما فى اختيار الآيات لموضوعها.

ودراستى تختلف عن دراسة كليهما؛ فهما لم يتعرضا لشرح الآيات، أما دراستى هذه – فقد قمت بشرح مبسط لمجموعة الآيات ذات الموضوع الواحد شرحاً يكشف عن طبيعتها، ويجزم بانتمائها لموضوعها.

وتبين لى أن السورة تناولت موضوعات حيوية هى عماد كل أمة وأساس كل دستور؛ فالعقيدة كانت هى المرتكز الرئيسى والمحور الأساسى لكل موضوعات السورة؛ فقد أوْلت المرأة عناية بالغة وتكريماً عظيما منٌ خلال العقيدة، بما يحق لها أن تباهى بمكانتها هذه، وتستطيع أن ترد على أولئك الأفاقين المغالين الذين يدعون – كذبا – أن الإسلام هضم المرأة حقها وألبسها ثوبا جامدا لاتستطيع أن تحيد عنه، ويكفى أن السورة قد سميت باسمها، هذا الاسم الذى يحمل كل معانى التكريم لذلك النوع المستضعف الذى كان يلاقى الذل والهوان فى مجتمع جائر وبيئة ظالمة. وقد بينت ذلك فى موضعه.

كما نبهت السورة إلى خطورة أعداء المجتمع المسلم فى الداخل والخارج: فأعداؤه فى

(١) فى كتابه تفصيل آيات القرآن الحكيم.

(٢) فى كتابه – تبويب آى القرآن من الناحية الموضوعية.

الداخـل المنافقون، وهم من الخطورة بمكان؛ حيث إنهم يظهرون الإسـلام ويبطنون الكفر والعداء للمسـلمين، ولولا لطف الله بالمسـلمين وتنبهم لهؤلاء لفعلوا الأفاعيل، ولاستطاعوا أن ينالوا من صرح الإسـلام ما لم تنله أيدى أعدائه الظاهرين. وقد كشـفت السورة نواياهم الخسيسـة، وهتكت أسـرارهم الدنيئة، وحددت هويتهم للرسـول ﷺ وللمسلمين، حتى يأخذوا حذرهم. ومما يلاحظ أن حديث السورة فى هذا الشأن كان امتداداً لحديث سورتى البقرة وآل عمران.

وأعداء المجتمع فى الخارج؛ هم اليهود والنصارى والمشـركون. ولم تترك السورة هؤلاء يعيشـون ويرمون المجتمع الإسلامى بسـهام العداوة والكفر، ولكنها دعتهم إلى توحيد الله تعالى، وبينت لهم - وخاصة أهل الكتاب منهم - أن محمداً لم يكن بِدَعاً من الرسـل، وأن دعوته امتداد لدعوة أنبيائهم؛ إذا المصدر واحد.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٦٣] ولاحظتُ أن الآيات التى تناولت الحديث عن اليهود جاءت فى جموعات متفرقة من السورة كل مجموعة تفضح أمراً لهم وتبين خسة من خسائسهم.

فالآيـات (٣٧ - ٣٨ - ٣٩) وصـف لأخلاق اليهود الدنيئة فـى البخل، بل ويأمرون غيرهم به.

والآيـات (٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥) اثنتا عشرة آية؛ تبين خبثهم ومكرهم وبعض الصفات الذميمة التى تتملكهم.

والآيات (١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢) ثلاث عشرة آية تتحدث عن أخلاق غاية فى الخسة لليهود بما هو معروف عنهم.

والآيات (١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣) تتحدث عن أوضاع وأخلاق وضيعة لهم، بحيث إنهم لم يتركوا جرما إلا ارتكبوه، ولا عيبا إلا اقترفوه ولا خلقا دنيئا إلا فعلوه، فلعنة الله عليهم إلى يوم الدين.

وأما الباب الثانى: فقد كان دراسة فقهية؛ لمعرفة ما جاءت به السورة من أحكام.

وقد لاحظت أن سورة النساء جاءت بمجموعة أحكام وقوانين لم ترِد فى غيرها من سور

القرآن كله؛ كتوزيع المواريث، وتعديد النساء التى يحرم الزواج بهن.

ولاحظت أن حديث السورة فى مجال الأحكام كان ذا شقين: شق يربط الإنسان بربه برباط العبادة والطاعة والولاء. وشق ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان؛ حتى يكون جديراً باستخلاف الله له فى الأرض؛ ومن هنا كان تنبيه السورة للمسلم أن يحافظ على عقله فنبهته الى مضار السُكْر، وإلى محافظة المسلم على علاقته بربه حتى فى أشد أحواله؛ فكان بيان صلاة السفر، وصلاة الخوف وكيفية أدائهما مع رسول الله ﷺ.

وفيما تدعو إليه السورة من طهارة المسلم داخلياً وخارجياً أمرتْ بالاغتسال من الجنابة، وشُرِع فيها التيمم بديلا للغسل والوضوء، فى حال عدم توفر الماء الزائد عن الشرب؛ للتخفيف على المسلمين، ورفع الحرج عنهم، ومداومتهم على العبادة تحت أى ظرف من الظروف.

وأما ما ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فكانت تشريعات السورة التى نظمت هذه العلاقة تنظيماً دقيقاً ومحكماً وعادلاً.

وأول حديث السورة فى هذا الشأن؛ هو نظام التوريث الإسلامي، الذى أبطل ما أَلِفَه العرب من فوضى واضطهاد لنوعيات مستضعفة فى مجتمعهم؛ كالنساء والصغار الذين كفلت لهم السورة حقوقهم كاملة غير منقوصة، وحددت للمرأة نصيباً مفروضاً من الميراث، بل إنها جعلت هذا النصيب هو المكيال الذى يورَّث الذكر على أساسه: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١١] وشمل قانون التوريث أصنافاً وأعداداً كثيرة من أقارب الميت؛ مبتدئاً بالأهم فالمهم وأوجدت نظام التوريث بالكلالة؛ وهم الذين يرثون عند فقد الأصل الوارث، أو الفرع الوارث.

ومما هو جدير بالذكر أن السورة - فى سياق حديثها عن علم المواريث - تناولت أصول الموضوع وفروعه وجزئياته، حديثاً مستفيضاً، وتقسيماً واضحاً، بما لا يترك مجالاً لمجتهد، أو ذى رأى فاسد فالأمر من الأهمية القصوى، حتى تولى الله تعالى بنفسه التقسيم؛ فلا يضيع حق من الحقوق لأى إنسان مهما كانت درجته.

وثانى ما تناولته السورة فيما ينظم علاقة الإنسان بالإنسان هو قانون الزواج، فحددت أنواعاً من النساء يحرم الزواج بهن؛ لحكمة عالية وقدرة عظيمة، بما هو مبين فى موضعه. ويبقى السر الحقيقى مجالاً للبحث وطريقاً للاستنباط من كتاب الله الحكيم «ألا يعلم من

خلق وهو اللطيف الخبير» فما حُرِّم الزواج من الأم؛ إلا للمحافظة على علاقة الأمومة الطيبة الطاهرة، بحيث لا يشوبها إذلال الوطء واستعباد الزواج؛ وإلا فكيف يقع إنسان على أمه، والأصل أن يكون خافضا لهاً جناح الذل من الرحمة؟ وما يقال عن الأم يقال عن الأخت، والبنت، مع فارق طفيف تفرضه درجة القرابة بينهما.

وامتداداً لتنظيم السورة للمجتمع المسلم، بيّنتْ حد القاتل عن طريق الخطأ؛ وذلك لاستتباب الأمن في المجتمع، وحتى يكون الإنسان حذرا فى كل تصرفاته. فبينت أن من قتل مؤمناً خطأ، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدق أهله. فإن كان المقتول مؤمناً من قوم أعداء للمسلمين، فتحرير رقبة مؤمنة، ولم تذكر السورة دية فى هذه الحالة كى لا يتقوى بها أعداء المسلمين عليهم ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٩٢] قانون - إذن - يضمن سلامة المجتمع ويحفظ أمنه ويجعل كل فرد فيه يشعر بالحرية والعزة والكرامة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون - الآية ٨].

ولم يقتصر حديث السورة على جنايات القصاص، بل إنها ذكرت نوعاً آخر من الجنايات وهو جنايات الحدود. ولم يكن الحد الذى وضعته السورة للزانية الحرة فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ﴿١٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٥] حداً نهائياً، ولكنه تمهيد لما جاء بعد سورة النور ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة النور - الآية ٢] أما حد الأمَةِ الزانية فقد بينته السورة بأنه؛ نصف ما على المحصنة، وذلك مبين فى موضعه.

وكان الباب الثالث: دراسة لدلالة الكلام البيانية؛ والقرآن الكريم أعلى منازل البيان، وأسمى مراتبه لما جمع من وجوه الحسن وأسبابه، وهو معجزة الله الخالدة لرسوله الكريم على مر العصور، وبالرغم من أن القرآن العظيم نزل بلسان عربى مبين، إلا أنه اختلف عن أى نظم نظمه العرب؛ وهم يومئذ أرباب الفصاحة وأساطين اللغة، وتحداهم الله تعالى - مع اجتماع الجن معهم - أن يأتوا بمثله، أو ببعض منه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، ولكنهم فشلوا وخارت قواهم البيانية، وهزموا هزيمة نكراء، وانقلبوا صاغرين، وذهبت آراؤهم كل مذهب فى سر إعجاز هذا القرآن العظيم؛ فمن قائل بلفظه، ومن قائل بنظمه،

ومـن قائل بإخبـاره بالمغيبات، ومن قائل بالصَّرْفَة[1]. وليتهم ما قالوها، إلى آخر ما ذهبت إليه آراؤهم.

وبدراسة اللفظ القرآنى فى سورة النساء يتضح أن كلماتها نزلت منازلها، بحيث لا ترى كلمة زائدة، أو حرفاً مضطرباً، وحتى لو اسـتبدلنا كلمة بمرادفها لَمَجَت الأذن سماعها، واختل نظم الآية التى هى فيها؛ فكلمة مثل (بث) من مرادفاتها: نشر، وفرق، إلا أن أياً منها لا تؤدى ما أدته (بث) فى مكانها من الآية.

وهكذا فى كل ألفاظ القرآن الكريم، وحتى الكلمات غير العربية فى السـورة من نبطية ورومية وحبشية كانت العرب قد أنزلتها فى فصيحها، فصارت فصيحة وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سـورة يوسف - الآية ٢] يقول الرافعى وارتبطت الكلمة الواحدة بالجلمة (الآية) ارتباط العضو بالجسـد؛ بحيث إن اللفظ بعينه لا يصلح إلا فى قالب جملته فيروع البيان ويحكم النظم ويعذب الجرس.

وقد لاحظت أن لسـورة النسـاء ألفاظاً بعينها، اختصت بها ولم ترد فى غيرها من سور القـرآن كله مثـل (حوباً - نِحلة - كلالة - أفضى - ربائـب - حجر - ثبات - يبطّئن - يستنبطونه - مقيتا - أركس - مراغما - يبتكن - مذبذبين - يستنكف).

ومن خلال دراسـة تراكيب السـورة، لاحظت أن الجملة القرآنيـة ذات نَفَس طويل، يتناسب وطبيعة الأحكام التى اشتملت عليها. ويتضح أن الجملة فى السورة المدنية كسورة النسـاء تخلو مما تميزت به جملة القرآن المكى من موسيقى ظاهرة ناتجة عن المحسنات، أما الموسيقى فى سورة النساء فإنها داخلية تحسها النفس، ويشعر بها الوجدان عند قراءة الآيات، وهى ناتجة عن دقة النظم وإحكام الصياغة.

والجملـة القرآنيـة؛ تطول أحياناً، وتقصر حينا فى السـورة، بحسـب الموضوع الذى تتناولـه، دونمـا خلل فـى قِصَرها أو ملل مـن طولها وهى فى كلا الحالـين تخدم غرضاً بلاغياً بعينه؛ فالإطناب فى قوله تعالى: «فادفعوا إليهم أموالهم.. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٦] لتأكيد الدفع والحث عليه وسرعة تنفيذه.

وتكرار ألفاظ بعينها فى الآية الواحدة؛ كلفظ (اتقوا) فى مفتتح السـورة؛ للتشـديد على هذا الأمر وبيان أهميته، ثم هو لتحقيق غرض آخر لإيجاد نوع من الموسيقى إذ التكرار قام على وحدات متساوية.

---

(١) أى أنهم كانوا يستطيعون الإتيان بمثله - على حد زعمهم - ولكن الله صرفهم عن ذلك.

والحـذف فى بعض الآيات عندما يقوم الدليل عليـه كما فى قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ ﴿١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١] لإعمال العقل، فلم توصف النساء بالكثرة لوصف الرجال به قبله.

وعطـف الجملة على الأخرى كما فى قولـه تعالى ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰٓ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سـورة النساء – الآية ٢]للتأكيد والتشديد والمبالغة فى تنفيذ الحكم.

والجُمَل الفعلية أكثر وروداً من الاسمية. وذلك له دلالة بعينها؛ ذلك أن سـورة النساء احتوت على كثير من الأحكام والأوامر والنواهى التى يجب على المسلمين اتباعها فى كل زمان ومكان.

ولاحظـتُ أن هناك ترابطاً بين أول السـورة وآخرها؛ فلـكل مجموعة من الآيات خيط دقيـق ينظمها مـع مجموعتها ثم هو متصـل فى النهاية بموضوعات السـورة ككل، على الرغم من تعدد وتباين تلك الموضوعات؛ فآية الكلالة – مثلاً – فى أول السـورة ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴿١٢﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ١٢] ترتبط تماماً بآية الكلالة فى آخر السورة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴿١٧٦﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ١٧٦] على أن الأولى تتناول الإخوة لأم، والأخيرة تتناول الإخوة الأشـقاء، أو لأب، ولكنهما على أية حال كلالة. ويلحظ أن آيـة الكلالة الأخيرة أزالت الغموض الذى ربما يقع فيه البعض حول مفهوم آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ فهـذه الآية بينت نصيب البنت الواحدة، أو أكثر، بقوله تعـالى: «فوق اثنتـين». وأن فى آية الكلالـة الأخيرة بيان لنصيب الأختين الشـقيقتين، أو – لأب، وهو الثلثان عند عدم وجود الأصل الوارث، أو الفرع الوارث، ولما كانت البنتان ألصق بالموروث من الأختين، صار الإجماع على جعل نصيب البنتين الثلثين.

والصورة الفنية فى سـورة النسـاء صـورة جزئية؛ تتمثل فى المجـاز، والكناية، وهى مباحث علم البيان؛ لإظهار معانى السـورة وتوضيحها؛ فهى تعدل عن اللفظ الظاهر، إلى ما هو أبلغ فيقع فى النفوس موقعاً حسناً.

وقـد أدت الصـورة دورهـا فى توضيح المعنـى، وإظهاره، كما فى قولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢١] كناية عن الجماع فى لفظ (أفضى)، وفائدتها التعبير عما لا يليق ذكره بما تسيغ الأذن سماعه، وذلك ما لا يخفى فى قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٤٣] كناية عن قضاء الحاجة؛ بينما الغائط فى اللغة هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا يقضون حاجتهم فيه، وقد كنى به فى هذا الموضع؛ لذكر ما يليق ذكره والله – تعالى – حيى كريم يكنى بما يشاء.

وهكذا كانت الصورة البيانية فى سورة النساء لا تعدو أن تكون جزئية للتوضيح، أو كناية وقعت فى مكانها المناسب، أو تعريض لذم اليهود وبيان صفاتهم الخسيسة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣٦] ففى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ تعريض باليهود وذم نقيصة الكبر لديهم.

الصورة البيانية إذن فى سورة النساء المدنية ليست كالصورة فى سورة مكية؛ ذلك أن الصورة فى السور المكية كلية، تتكون من أجزاء متعددة تتضافر كلها لإبرازها.

ولما كانت سورة النساء مدنية ومليئة بالأحكام والتشريعات والقانون المنظم لحركة الإنسان فى الأرض، فلا مجال للصورة التى عهدناها فى القرآن المكى.

والله – تعالى – أسأل أن تنال دراستى هذه – الرضا والقبول من الله أولا وآخرا، وأن ينفعنى بها ووالدى يوم تزل الأقدام؛ فإن كنت أصبت فذلك فضل يؤتيه الله من يشاء، وإن كانت الأخرى فمنى والشيطان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١ – ابن الأثير، أبوالحسن على بن محمد الجزرى: أسد الغابة في معرفة الصحابة – دار الفكر – بيروت.

٢ – ابن الجوزي، أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف: النشر في القراءات العشر – مطبعة مصطفى محمد – مصر

٣ – ابن العربى، أبوبكر محمد بن عبدالله، ت ٥٤٣هـ: أحكام القرآن – تحقيق على محمد البجاوى – طبعة عيسى البابى الحلبى، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٤ – ابن القيم، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبى بكرة، ت ٧٥١هـ: أعلام الموقعين عن رب العالمين – مطبعة الحاج عبدالسلام بن محمد شقرون، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

٥ – ابن جنى، أبوالفتح عثمان، ت ٣٠٢هـ: الخصائص – تحقيق محمد على النجار – دار الهدى – بيروت.

٦ – المحتسب فى شواذ القراءات، تحقيق على النجدى وعبدالفتاح شلبي،طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٩م.

٧ – ابن حجر، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على العسقلانى، ت ٨٥٢هـ: الإصابة فى تمييز الصحابة – تحقيق د. طه محمد الزيني. مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

٨ – فتح البارى بشرح صحيح البخارى. المطبعة البهية المصرية ١٣٨٤هـ.

٩ – ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد: المُحَلّى. المطبعة المنيرية ط. أولى ١٣٥١هـ.

١٠ – ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرطبى المالكي، ت ٥٩٥هـ: بداية المجتهد ونهاية المقتصد – المكتبة التجارية بمصر.

١١ – ابن عابدين، محمد أمين، ت ١٢٥٢هـ: حاشية رد المحتار على الدر المختار – شرح تنوير الأبصار فى فقه مذهب الإمام أب حنيفة – طبع مصطفى البابى الحلبى. ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م.

١٢ – ابن فارس، أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا: الصاحبي – تحقيق السيد أحمد صقر. مطبعة عيسى البابى الحلبى. ١٩٧٧م.

١٣ – بن قتيبة، أبومحمد عبدالله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ: تأويل مشكل القرآن – شرح السيد أحمد صقر – دار التراث ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.
١٤ – ابن قدامة، أبومحمد عبدالله بن أحمد بن محمد، ت ٦٢٠هـ: المغني، على مختصر أبى القاسم عمر بن حسين بن عبدالله بن أحمد الخرقى، ت ٣٤٣هـ، تحقيق د. طه محمد الزينى، مكتبة القاهرة. ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م.
١٥ – ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبوالفداء إسماعيل، ت ٧٧٤هـ: عمدة التفسير، تحقيق أحمد محمد شاكر. دار المعارف ١٣٧٦هـ – ١٩٥٦م.
١٦ – ابن مجاهد، أبوبكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمى البغدادى: السبعة في القراءات. تحقيق د. شوقى ضيف. دار المعارف.
١٧ – ابن منظور، جمال الدين أبوالفضل محمد، ت ٧١١هـ: لسان العرب. دار المعارف ١٩٧٩م.
١٨ – ابن هشام، أبومحمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى، ت ٢١٨هـ: سيرة النبى. دار الفكر ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م.
١٩ – أبوالحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – دار الأنصار ١٩٧٧م.
٢٠ – أبوالطيب، محمد شمس الحق العظيم أبادى: عون المعبود شرح سنن أبى داود، مع شرح الحافظ بن قيم الجوزية. المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط. ثانية. ١٣٨٨هـ
٢١ – أبومالك، كمال بن السيد سالم: صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة. المكتبة التوفيقية.
٢٢ – أحمد الحملاوى: شذا العرف في فن الصرف. مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.
٢٣ – الألوسى، شهاب الدين السيد محمود، ت ١٢٧٠هـ: روح المعانى في تفسير القرآن والسبع المثانى – دار الفكر بيروت. ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٢٤ – البخارى، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة، ت ٢٥٦هـ: صحيح البخارى – دار ومطابع الشعب.
٢٥ – متن البخارى بحاشية السندى. عيسى البابى الحلبى.
٢٦ – الترمذى، عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩هـ: سنن الترمذى. تحقيق أحمد محمد شاكر، مصطفى الحلبى ١٣٥٦هـ.

٢٧ – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، ت ٢٥٥هـ: البيان والتبيين – تحقيق السندوبى. مطبعة الاستقامة بالقاهرة. ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.
٢٨ – الحيوان – تحقيق عبدالسلام هارون. دار إحياء التراث العربى ١٣٨٨هـ –١٩٦٩م.
٢٩ – الخازن، علاء الدين على بن محمد البغدادى: لباب التأويل فى معانى التنزيل. مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٣١هـ.
٣٠ – الراغب الأصفهانى، أبوالقاسم الحسين بن محمد، ت ٥٠٢هـ: المفردات فى غريب القرآن. دار المعرفة بيروت.
٣١ – الرمانى، أبوالحسن على بن عيسى، ت ٣٨٦هـ: النكت فى إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام. دار المعارف ١٩٧٦م.
٣٢ – الزمخشرى، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت ٥٢٨هـ: أساس البلاغة. مطبعة دار الكتب ١٩٧٣م.
٣٣ – الكشاف. المطبعة العامرة بالقاهرة. ١٣٠٨هـ.
٣٤ – السرخسى، أبوبكر محمد، ت٥٠٠هـ: المبسوط – طبع ونشر دار المعرفة.
٣٥ – السكاكى، أبويعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على، ت ٦٣٦هـ: مفتاح العلوم. دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٣٦ – السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن، ت ٩١١هـ: الاتقان فى علوم القرآن. مصطفى البابى الحلبى. ٣٩٨هـ.
٣٧ – أسرار ترتيب القرآن – تحقيق عبدالقادر أحمد عطا. دار الاعتصام ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
٣٨ – شرح عقود الجمان. عيسى الحلبى.
٣٩ – لباب النقول فى أسباب النزول. مصطفى الحلبى ١٩٥٤م.
٤٠ – معترك الأقران فى إعجاز القرآن – تحقيق محمد على البجاوى. دار الفكر العربى.
٤١ – الشوكانى، محمد بن على بن محمد، ت ١٢٥٠هـ: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار – تحقيق طه عبدالرءوف سعد ومصطفى محمد الهوارى – مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
٤٢ – الطبرى، أبوجعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ: تاريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. دار المعارف ١٩٦٨م.

٤٣ – تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) – تحقيق محمود محمد شاكر. دار المعارف مصر.
٤٤ – العكبرى، أبوالبقاء عبدالله بن حسين بن عبدالله، ت ٦١٦هـ: إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. دار الكتب العلمية ببيروت. ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٤٥ – الغزالى، أبوحامد محمد بن محمد بن محمد، ت ٥٠٥هـ: إحياء علوم الدين. عيسى البابى الحلبى.
٤٦ – الفخر الرازى، محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى، ت ٦٠٤هـ: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. دار الفكر ١٤٠١هـ –١٩٨١م.
٤٧ – الفيروز أبادى، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط. مصطفى البابى الحلبى. ١٣٧١هـ.
٤٨ – القاسمى، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. عيسى البابى الحلبى. شرح وتعليق محمود فؤاد عبدالباقى.
٤٩ – القرطبى، أبوعبدالله محمد بن أحمد الأنصارى: الجامع لأحكام القرآن. دار الشعب ١٩٧٣م.
٥٠ – النسائى، الحافظ أبوعبدالرحمن بن شعيب. ت ٣٠٣هـ: سنن النسائي (المجتبى). مصطفى الحلبى ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م.
٥١ – الواحدى، أبوالحسن على بن أحمد الواحدى النيسبوري، ت ٤٦٨هـ: أسباب النزول. مؤسسة الحلبى. ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.
٥٢ – جول لابوم، مستشرق فرنسى: تفصيل آيات القرآن الحكيم. ترجمة محمد فؤاد عبدالباقى. دار الكتاب العربى. ١٩٦٩م.
٥٣ – سيد سابق: فقه السنة. مكتبة الآداب. ١٩٧٧م.
٥٤ – سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن. دار المعارف. ١٩٧٥م.
٥٥ – في ظلال القرآن. دار الشروق. ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.
٥٦ – مشاهد القيامة فى القرآن. دار المعارف. ١٩٧٦م.
٥٧ – شهاب الدين القسطلانى، ت ٩٢٣هـ: لطائف الإشارات لفنون القراءات – تحقيق الشيخ عامر السيد عثمان والدكتور عبدالصبور شاهين. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

٥٨ – شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ. دار المعارف. ١٩٧٧م.
٥٩ – عبدالقادر عودة: التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي. مؤسسة الرسالة بيروت. ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٦٠ – عبدالقاهر الجرجاني، ت ٤٧١هـ: أسرار البلاغة. شرح وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي. مكتبة القاهرة. ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.
٦١ – دلائل الإعجاز. صحح أصله الإمام محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي. طبع محمد علي صبيح. ١٣٨٠هـ
٦٢ – عبدالمتعال الصعيدي: النظم الفني في القرآن. مكتبة الآداب.
٦٣ – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. مكتبة الآداب.
٦٤ – عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه. دار القلم.
٦٥ – كمال محمد بشر: علم اللغة العام (الأصوات) – دار المعارف ١٩٧٥م.
٦٦ – لبيب سعد: دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطبري المفسر. دار المعارف ١٩٧٨م.
٦٧ – مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. طبع دار المعارف ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٦٨ – محمد أبوزهرة: أحكام التركات والمواريث. دار الفكر العربي. ١٩٦٣م.
٦٩ – محمد حسين هيكل: حياة محمد – دار المعارف. ١٩٧٧م.
٧٠ – محمد رشيد رضا: تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة ١٩٧٣م.
٧١ – محمد زكي صالح: الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن. البابي الحلبي. ١٩٥٧م.
٧٢ – محمد سيد طنطاوي: تفسير سورة النساء. مطبعة السعادة.
٧٣ – محمد فريد وجدي: المصحف المفسر. طبع دار الشعب. بدون تاريخ.
٧٤ – محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. دار عمر بن الخطاب. ١٣٩٠هـ
٧٥ – محمد علي رزق الخفاجي: علم الفصاحة العربية. دار المعارف. ١٩٧٩م.
٧٦ – محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الشعب.
٧٧ – الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسبوري، ت ٢٦١هـ: صحيح مسلم – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. عيسى الحلبي. ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.
٧٨ – مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الكتاب العربي. ١٩٧٣م.
٧٩ – ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله: معجم البلدان. طبع بيروت.